الطـــرق الصوفيـة والجهـــاد

فـي العصـر الحديـث

دراسـة نموذجيـة وتقويميـة

إعداد الباحث

د/ علي إسماعيل الجدة

أستاذ م العقيدة والمذاهب المعاصرة

جامعة الأزهر

مقدمـــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعـــد ..

لكل إنسان دور يؤديه في الحياة ـ إيجاباً وسلباً قوة وضعفا ـ ويمضي إلى ربه فيجد ما قدمه بين يديه وأثره شاهد عليه ـ قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ {١٢}﴾ (١)

والإنسان دائر بين فلكين ومتقلب بين أمرين لا انفكاك له عن أحدهما شاء أم أبى ـ هما الخير والشر ـ وقد بين الله له طريقهما ودله عليهما ـ قال تعالى : " وهديناه النجدين " (٢) أي بينا له طريق الخير وطريق الشر ـ فالهداية من الخالق والفعل من المخلوق .

وهذه المنظومة آية ربانية وسنه إلهية وقضية قدرية ـ والإنسان الطرقي لا يخرج في إطاره عن هذه المنظومة ـ والطرق بمكوناتها الإنسانية كذلك ـ فمنهم من له دور إيجابي في الحياة ـ ومنهم من له دور سلبي فيها . وهذا الدور بنوعية له أهميته وخطورته من جماعة كبيرة في المجتمع ـ وقطاع عريض فيه ـ إذ تمثل الطرق الصوفية الاتجاه الشعبي في كثير من البلاد الإسلامية ـ خاصة بعد أن تقلصت الجماعات والأحزاب الدينية وتراجعت عن الصدارة في المجتمعات الإسلامية .

هنا يأتي دور الطرق الصوفية ليسد الخلل ويجبر النقص الذي لم تملأه الجماعات المتقدمة في فترة تاريخية من أحلك الفترات وأشدها حرجاً . هي فترة الاحتلال الذي منيت به القارة الإفريقية ـ وكانت هذه الفترة محور الارتكاز ـ والتي تعرضت فيه الطرق الصوفية لاختبار قاس وامتحان شديد . عاملاً قوياً في بيان أمرها وكشف حقيقتها وتوضيح موقفها في قضية من أخطر قضايا العصر الحديث إلا وهي قضية الجهاد .

---

١) يس آية ١٢ .

٢) البلد آية ١٠ .

٤ ففي القرنين التاسع عشر والعشرين استعمرت إفريقيا . ووقعت تحت نيران الاحتلال الأوربي . واكتوت بناره . ولابد للطرفين من موقف إزاء هذا المحتل المعتدي فماذا كان موقفها ؟

لقد تباينت الطرق الصوفية في موقفها من قضية الجهاد . فهناك طرق صوفية كثيرة رفعت راية الجهاد وقاومت المحتل بكل ما أوتيت من قوة . وقابلتها أخرى قليلة رفعت راية الاستسلام والمسالمة فهادنته وساعدته . فلماذا جاهدت الأولى وقاومت وهادنت الثانية وساعدت ؟ وكيف ذلك ؟

وهذا البحث في مضمونه ومحتواه يجيب عن هذه الأسئلة . وهنا تكمن أهميته وخطورته . ولكي تكون الإجابة صحيحة والردود صريحة لابد من بيان مطلبين :

الأول : إثبات تصوف الفرد تصوفاً حقيقيا لا إدعائياً وبيان الطريقة التي ينتمي إليها .

الثاني : إثبات أنه جاهد وقاوم أو هادن وعاون . وعليه ـ فالصوفي الذي لم يجاهد والجاهد الذي لم يتصوف خارج عن نطاق بحثنا . فلابد من حصول الأمرين والجمع بين المطلبين . وقد اقتضى ذلك الاعتماد على المنهج الوصفي والتاريخي " الاسترددادي " حيث نصف ظاهرة الطرق الصوفية محل الدراسة وصفاً دقيقاً باستقراء تاريخها واستشكاله والتفاعل معه لفهم الماضي . بغية الوصول إلى الهدف المنشود والحكم المقصود في قضية بحثنا .

ولئن كانت الفترة الزمنية طويلة والمساحة الجغرافية كبيرة . وهي كذلك بالفعل فإننا ندور مع الظاهرة وجوداً وعدماً . فحينما ثبت التصوف والجهاد فثم المراد . وإلا فإن شخصا واحداً في قطر واحد يكفي لإقامة رسالة علمية أو أكثر . ولذلك جعلنا دراستنا نموذجية منتخبة ، وتسهيلاً لهذه الدراسة فقد قسمتها إلى أربعة مباحث مسبوقة بمقدمة وتمهيد ومعقوبة بخاتمة .

أما **المقدمة** فقد ذكرت فيها أهمية الموضوع والمنهج المتبع فيه .

والتمهيد تناولت فيه المصطلحات المستخدمة في البحث وهي الطرق الصوفية وتطورها . ومعنى الجهاد . والمقصود بالعصر الحديث .

والمبحث الأول جعلته بعنوان "الطرق الصوفية وأدلة الجهاد " وفيه مناقشة الأدلة التي احتج بها القوم على أن المقصود بالجهاد ــ جهاد النفس وفندت ذلك .

والمبحث الثاني . جعلته بعنوان " الطرق الصوفية المقاومة " وتناولت فيه الطرق الصوفية التي جاهدت المحتل في كثير من البلدان الأفريقية . ذاكر المواقع والنتائج .

والمبحث الثالث . جعلته بعنوان " الطرق الصوفية المعاونة " وتناولت فيه الطرق الصوفية التي عاونت المستعمر وساعدته . مبينا وجوه ذلك ومفسراً له .

والمبحث الرابع . جعلته بعنوان " التقويم " وذكرت فيه الحكم على كل طريقة بما يناسبها . بلا محاباة أو مجافاة .

والخاتمة . وذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث

وبعد فإن هذه الدراسة محاولة جادة ومخلصة للنظر في موقف الطرق الصوفية من الجهاد في العصر الحديث من خلال رأى منصف وحكم عادل بعيداً عن المفاعلة والمجاملة . فقد حان الوقت لأن نتجاوز حالات الانفصام الخطيرة في كثير من مشاكلنا وقضايانا . ونعود لنقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسئت .

وأخيراً فمازال لكلمات العماد الأصفهاني صدى في أذني " إني رأيت أن لا يكتب أحد كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن . ولو ترك هذا لكان أجمل .وهذا من أعظم العبر. وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر"

جعلنا الله من الذين يعلمون فيعملون . ويعملون فيخلصون . ويخلصون فيقبلون .

فاللهم تقبل عملنا واجعله خالصاً لوجهك الكريم ــ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

الباحث

د/ علي إسماعيل الجدة

أستاذ م العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر

ــ أمها ليلة الخميس ٣/١٢/١٤٢٨هــ الموافق ١٢/١٢/٢٠٠٧م

تمهيـــد

لابد من بيان معاني المصطلحات الواردة في عنوان البحث لتوضيح المراد وفهم المقصود . وأول هذه المصطلحات :

١ ـــ الطرق الصوفية : جاء في لسان العرب لابن منظور " الطريق " السـبيل ـــ تذكر وتؤنث تقول : الطريق الأعظم . والطريق العظمي وكذلك السبيل . والجمع : طرقة وطرق ..

والطريقة : السيرة . وطريقة الرجل : ملهبه . يقال : مازال فلان على طريقة واحدة . أي على حالة واحدة . وفلان حسـن الطريقة والطريقة الحال . يقال هو على طريقة حسنة . وطريقة سيئة . وقول لبيد أنشده شمر :

فإن تسهلوا فالسهل حظي وطُرقي
وإن تحزنوا اركب بهم كل مركب [١]

وفي المعجم الوسيط : أن الطريقة كالطريق : تكون في الحسي . الخط في الشيء . والأخدود في الأرض. وكل شيء ملزق بعضه ببعض أو بعضه فوق بعض.

وفي المعنى : هو الحال والسيرة حسنة أو سيئة : وجمعها طرائق . ومن معاني الطريقة . الرجال الأشراف . وطريقة القوم : أماثلهم وخيارهم . أي الذين يجعلهم قومهم قدوة . ويسلكون طريقهم [٢] .

وقد أشارت آيات القرآن إلى استعمال الطريق والطريقة في المعنيين الحسي والمعنوي [٣] .

---

١) انظر لسان العرب لجمال الدين بن منظور ج ٥٩٦/٥ مادة طرق ـــ طبع دار الحديث بالقاهرة ١٤٢٣هـــ ـــ ٢٠٠٣م .

٢) انظر المعجم الوسيط ـــ مجمع اللغة العربية ج ٥٧٦/٢ ط دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠م .

٣) من المعاني المعنوية قول الله تعالى : " إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم ... الآية النساء آية ١٦٩ وقوله تعالى : " قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم " الآية الأحقاف آية ٣٠ وقوله :

ومقصودنا هنا المعنوية .

والطريقة في الاصطلاح :

لا نستطيع أن نقول إن هناك تعريفاً جامعاً مانعاً للطرق الصوفية كما يقول المناطقة ــ لأن الطريقة لم تستقر على معنى واحد منذ البداية وإلى النهاية كقاعدة ثابتة ــ وإنما تطور معناها مع تطور الزمان وتغير المكان . وإن كنا لا نعدم صورة مجملة ترسم شكل الطريقة في إطارها العام . وهي كما يقول أحد الباحثين : " عبارة عن مجموعة من القواعد والرسوم التي يضعها المشايخ للمريدين للوصول إلى غاية معينة .. "[(١)]

وهذه الصورة المجملة حوت في مضمونها تطور معنى الطريقة . وهي في بداياتها الأولى على النحو التالي :

١ ــ يذكر الإمام القشيري في رسالته القشيرية . أن الطريقة عبارة عن مجموعة الآداب والأخلاق والعقائد التي يتمسك بها طائفة من الصوفية .

---

* إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما .. الآية " طه آية ١٠٤ فالطريقة هنا معنوية والمعنى أعدلهم قولا وأكملهم رأيا . وأعلمهم عند نفسه .. " انظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني ج ٦٥/٣ مكتبة الرشد الرياض . ط ١٤٢٤/٣هـ ــ ٢٠٠٣م وقوله في نفس السورة " قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . " طه آية ٦٣ ومعنى بطريقتكم . يعني سنتكم . قال الكسائي . تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم " فتح القدير ج ٥٤/٣. ومن الحسي قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام مع قومه " فاضرب لهم طريقاً في البحر يبسا " طه آية ٧٧ والطريقة هنا لا تكون إلا محسوسة بدليل السابق واللاحق في الآية . وقوله " ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين " المؤمنون آية ١٧ . وطرائق هنا جمع . ويقصد بها السماوات . وسميت بذلك لأنها طوارق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل . والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة . وقيل لأنها طرائق الملائكة " فتح القدير ج ١٥٠/٣ .

١) انظر الموسوعة الصوفية د/ عبد المنعم الحفني ١١١٩ مكتبة مدبولي بالقاهرة ط ٢٠٠٦/٥م .

ويذكر أيضاً ـــ أن كلمة طريق ـــ تعني منهج الإرشاد النفسي والخلقي الذي يربي به الشيخ مريده .

فيروى عن أبي علي الدقاق شيخه قوله " الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر . كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسها فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً " (١)

وفي الرسالة القشيرية أيضاً ما يوضح لنا أن أوائل الصوفية كانوا يستخدمون إلى جانب اصطلاحي الطريق ـــ والطريقة ـــ اصطلاح السلوك (٢) . أي السير في الطريق (٣) .

ويذكر الدكتور التفتازاني صورة الطرق الصوفية في بداياتها الأولى : القرنين الثالث والرابع الهجريين " ويجعلها بمثابة المدارس القروية لتربية المريدين فيقول : " ومن ناحية أخرى نجد بعض شيوخ التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين كالجنيد والسري السقطي والخراز وغيرهم يجمعون حولهم المريدين من أجل تربيتهم فتكونت لأول مرة الطرق الصوفية في الإسلام التي كانت بمثابة المدارس التي يتلقى فيها السالكون آداب التصوف علماً وعملاً " (٤) .

وتحديد نشأة الطرق الصوفية وبداياتها الأولى بالقرنين الثالث والرابع الهجريين ذهب إليه جماعة من الباحثين (٥) .

---

١) الرسالة القشيرية للإمام القشيري ٢ ، ٣ ، ٧ ط القاهرة سنة ١٣٣٠هـــ ومدخل إلى التصوف الإسلامي د/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ١٠٨ دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة ط ١٩٧٩/٣م والطرق الصوفية في مصر د/ عامر النجار ١٩ دار المعارف القاهرة ط السادسة .

٢) انظر الرسالة القشيرية ١٨١ .

٣) انظر مدخل إلى التصوف الإسلامي د/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ١٠٩ .

٤) مدخل إلى التصوف الإسلامي د/ أبو الوفا التفتازاني ١٨ .

٥) انظر الحياة الروحية في الإسلام د/ محمد مصطفى حلمي ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ط القاهرة وتاريخ التصوف في الإسلام د/ قاسم غني ٦٤٩ ـــ ٦٥٠ ترجمة صادق نشأت ومراجعة د/ أحمد القيسي و د/ مصطفى حلمي ط مكتبة النهضة المصرية القاهرة وفلسفة الحياة الروحية د/ مقداد يالجن ٩٤ دار

ويذهب جماعة آخرون إلى أن تاريخ النشأة أقدم من ذلك ــ ويرون أن نشأة الطرق الصوفية ترجع إلى القرن الثاني الهجري (١)

ويبدو أن الذين يقولون بالنشأة الثانية لم يفرقوا بين التصوف والطرق الصوفية، فالتصوف بدأ في هذه الفترة والطرق الصوفية تأخرت عنها . وربما كانت حجتهم في ذلك اتفاق البدايات . فالتصوف أخلاق وسلوك والطرق الصوفية كذلك .

٢ ــ وفي القرن الخامس الهجري نجد الإمام الغزالي ت ٥٠٥هـ يفهم الطريق على نحو لا يختلف كثيراً عن النحو الذي ذكره الإمام القشيري ت ٤٦٥هـ وأبو طالب المكي ت ٣٨٦هـ فيقول " الطريق عبارة عن تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى . ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكلف له بتنويره بأنوار العلم. وإذا تولى فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر . وانكشف له سر الملكوت . وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ... (٢)

ويعني الإمام الغزالي كمن سبقه ببيان قواعد السلوك على نحو متصل . مثل علاقة المريد بالشيخ وقواعد العزلة والخلوة والذكر وما إليها . وهو يصف مقامات السلوك وأحواله على اختلافها في كتبه التي ألفها في التصوف وعلى الأخص ــ إحياء علوم الدين (٣) .

عالم الكتب للنشر والتوزيع ١٤١٠هـ ــ ١٩٨٩م والطرق الصوفية في مصر د/ عامر النجار ٦٠ دار المعارف القاهرة ط السادسة .

١) انظر التصوف في مصر إبان العصر العثماني د/ توفيق الطويل ٧١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م وأضواء على الطرق الصوفية في القارة الأفريقية د/ عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ١٣ مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٨٩م .

٢) انظر إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١٨/٣ دار إحياء الكتب العربية القاهرة وميزان العمل له ٤٥ مكتبة الجندي القاهرة د/ت .

٣) انظر الطرق الصوفية في مصر د/ عامر النجار ١٩ .

وهذا الكتاب بأقسامه الأربعة " العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات " في نظري يعتبر وصفاً دقيقاً لطريق السالك إلى الله تعالى من البداية إلى النهاية فغاية الطريق الصوفي عند الإمام الغزالي كما يقول الدكتور التفتازاني " الترقي الخلقي بالمجاهدة للنفس ـ وإحلال الأخلاق المحمودة محل الأخلاق المذمومة حتى يصل السالك إلى المعرفة بالله . فمدار الطريق عنده إذن على الخلق [١] .

فمعنى الطريق في القرن الخامس الهجري عند الغزالي لا يختلف عن معناه في القرنين السابقين .

٣ ـ معنى الطريقة في القرن السادس والسابع الهجري :

إذا انتقلنا إلى هذين القرنين وجدنا أن الطريقة عبارة عن نظام من الرياضة الصوفية المنظمة التي تميز كل طريقة عن الأخرى . ولذلك وصفها د/ فليب حتى بالهيئات الصوفية المنظمة [٢].

يقول الدكتور كامل الشيبي " وقد وصفت الطرق الصوفية وأولها القادرية المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني ٥٦١ هـ ـ ١١٦٦م بالهيئات الصوفية المنظمة .

واختلفت الآراء في بدايتها . وقيل في نشأة أوائلها : إن بعضها أسس قبل الغزو المغولي في أوائل القرن السابع الهجري " الثالث عشر الميلادي " [٣]

ويقول الدكتور / سعد الدين صالح " وإذا بحثنا في أصل نشأة هذه الطرق نجد أنها ترجع إلى القرن السابع الهجري غير أن منها طريقة واحدة ظهرت بدورها في

---

١) مدخل إلى التصوف الإسلامي د/ التفتازاني ١٦٩ .

٢) انظر تاريخ العرب د/ فليب حتى ج ٥٢٥/٢ بواسطة الصلة بين التصوف والتشيع د/ كامل الشيبي ٤٤٢ وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي د/ محمد احمد لوح ج ٣٤٣/١ دار الهجرة ـ الرياض ـ السعودية ط ١٤١٦/١هـ ـ ١٩٩٦م .

٣) انظر صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي د/ كامل مصطفى الشيبي ١٧٣ ، ١٧٤ دار المناهل بيروت لبنان ط ١٤١٨/١هـ ـ ١٩٩٧م .

القرن السادس الهجري ـــ وهي الطريقة التي أسسها الشيخ أحمد الرفاعي . والرفاعي مات في أواخر القرن السادس الهجري . ودفن حيث مات في العراق [١]

" ويقول أيضاً " إن مسألة الطرق لم يكن لها وجود في عصر الرسول (ﷺ) ولا في عصر الخلفاء الراشدين...ولم تظهر بصورة واضحة إلا في القرن السابع الهجري"[٢] وكلامه محمول على معنى الطريق المتداول والمصطلح عليه الآن .

وفي هذه الفترة التاريخية ظهرت فكرة الأقطاب يقول الدكتور التفتازاني " إن هذين القرنين شهدا ظهور أقطابه واستمر بعد ذلك عند أفراد من متفلسفة الصوفية حتى عصر ليس ببعيد [٣] .

ويقول أيضاً " إن هذين القرنين قد شهدا أيضاً استمراراً للتصوف السني عند الإمام الغزالي وازدهاراً له وانتشاراً واسعاً في العالم الإسلامي على أيدي شيوخ الطرق الصوفية الكبار " [٤] .

والحقيقة أن لم يظل على سنيته كاملاً كما يقول الدكتور التفتازاني بل شابه بعض البدع والمخالفات [٥] .

ومن الطرق التي ظهرت في هذين القرنين القادرية والأكبرية ـــ والرفاعية . والشاذلية والسهروردية . والأحمدية . والبرهانية . والعربية أو البدوية وغيرها كثير في العالم العربي والإسلامي [٦] .

---

١) انظر مشكلات التصوف المعاصر د/ سعد الدين السيد صالح ٨٧ دار المعارف القاهرة ط ١٩٩٣/٢م .

٢) السابق ٨٩ .

٣) انظر مدخل إلى التصوف الإسلامي ١٨٧ .

٤) السابق ٢٣٥ .

٥) انظر الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وآثارها د/ عبد الله بن دجين السهلي ١٢ ، ١٣ دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع الرياض ط ١٤٢٦/١هـ ـــ ٢٠٠٥م .

٦) انظر الحياة الروحية إشبيليا في الإسلام د/ محمد مصطفى حلمي ١٩٢ ، ١٩٣ ط الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ط ١٩٨٤/٢م والمدخل إلى التصوف الإسلامي ٢٣٦ ـــ ٢٤٥ .

ويضعنا الدكتور الشيبي أمام تميز واضح بين الطرق في القرن السادس الهجري السابقة واللاحقة فيجعل ما تقدم القرن السادس الهجري فرق وما لحقه طرق أو بمعنى أوضح بين التصوف النظري والعملي فيقول بعد أن ذكر الذين جعلوا التصوف كفرق ــ وهم السراج ومحمد البزدوي والرازي " وتطبيقا لهذه النظرية من تقسيم المتصوفة إلى فرق وطرق نستطيع أن نربط أصحاب الاتحاد والحلول ووحدة الوجود من الصوفية بالتقسيمات الصوفية المتعلقة بالفرق . ونجعل التطبيقات العملية التي نادى بها شيوخ التصوف اعتباراً من القرن السادس الهجري مبادئ تكون ملامح الطرق الصوفية ــ وبمعنى أخر فإن ما يتصل بالمبادئ النظرية من التصوف يندرج تحت اسم الفرق . وما يتفرع عن التطبيقات العملية ينطبق على مفهوم الطرق " [1] ثم يقول " على أننا ينبغي أن نلاحظ أن الفرق قد توقف نموها إلا على صورة فردية تتمثل في آراء شخصية تلوح في كل فترة دون أن يكون لها خطرا وأهمية على عكس الطرق التي صاغت القالب الذي ينصب منه تجمع الصوفية على صورة من الصور [2]

والخلاصة أن التصوف تطور من الفرق إلى الطرق وأخذ مفهوم الطريقة السيطرة شبة الكاملة حتى غدا لكثير من الناس لا يعلم التصوف إلا من خلال الطرق الصوفية .

٤ ــ معنى الطريقة في القرن الثامن والتاسع الهجري .

تحول معنى الطريقة في هذا القرن إلى معنى سياسي . وذلك باستغلال أصحاب الطرق لفكرة المهدي لدعم حركتهم بهدف الوصول إلى الحكم وإقامة نظام صوفي ينظم الحياة المادية كتنظيمة للحياة الروحية [3] .

---

١) انظر صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي د/ كامل الشيبي ١٧٢ ، ١٧٣ .

٢) السابق ١٧٣ .

٣) انظر صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي د/ كامل الشيبي ١٧٦ ، ١٧٧ .

وقد ذكر الدكتور الشيبي نماذج على ذلك بيد أنها لم تقتصر على القرن الثامن والتاسع الهجريين بل تعداه إلى غيرها من القرون . يقول ومن هذه الطرق — الطريقة النوربخشية الإيرانية التي تتصل بمحمد بن عبد الله الإحساني الملقب بنوربخش [١] .

ومن الحركات الصوفية القائمة على فكرة المهدي المنتظر — الثورة التي قام بها محمد بن فلاح الموسوي الواسطي في منتصف القرن التاسع الهجري " الخامس عشر الميلادي " [٢] وكذلك الحركة المهدية التي نشأت في السودان على يد الزعيم الصوفي العلوي — محمد بن أحمد بن عبد الله المهدي [٣] في نهاية القرن الثالث عشر الهجري " التاسع عشر الميلادي " والذي اعتبر نفسه المجدد الإسلامي على رأس القرن والمهدي المنتظر الذي تنبأت الملاحم بظهوره في نهاية العالم [٤] .

٥ — معنى الطريقة عند القرون المتأخرة :

الطريقة في القرون المتأخرة — عبارة عن مجموعة من أفراد الصوفية ينتسبون إلى شيخ معين ويخضعون لنظام دقيق في السلوك الروحي ويحيون حياة اجتماعية في

---

١) ولد نوربخش سنة ٨٢٨ هـ — ١٤٢٤هـ وتوفى سنة ٨٦٩هـ /١٤٦٤هـ وكان مدار دعوته على أنه المهدي المنتظر الذي يؤمن به الصوفية بوصفه خاتم الأنبياء ... وقد اعتمدت الدعوة النوربخشية على منهج إشراقي واضح مطعم بالأفكار الفلسفية والكلامية ولكنها توجهت إلى إسباغ صفة الإنسان الكامل المقترن بامتياز روحي على هذه الطريقة " انظر صفحات مكثفة ١٧٧ والموسوعة الصوفية د/ عبد المنعم الحفني ١١٢٠ .

٢) اعتمدت هذه الحركة على فكرة الإنسانية الكاملة وختم الأولياء على منهج شيعي غالٍ يعتقد في حلول روح علي بن أبي طالب باعتباره ممثلاً للقوة الإلهية وقد لقنت الدولة الصفوية " إيران " على زعماء هذه الطريقة في بداية القرن العاشر الهجري . انظر صفحات مكثفة ١٧٧ .

٣) ولد في جزيرة لبيا جنوب دنقلة عام ١٢٦٠ — ١٣٠٢ هـ ، ١٨٤٥م — ١٨٨٥م حفظ القرآن وتتلمذ على الشيخ محمود الشنقيطي له جهود سياسية كبيرة أهلته لقيام دولة السودان الحديثة وسيأتي الحديث عنه موسعاً في الفرق التي قاومت المستعمر .

٤) صفحات مكثفة ١٧٨ .

الزوايا والربط والخانقاوات أو يجتمعون اجتماعات دورية في مناسبات معينة ويعقدون مجالس العلم والذكر بانتظام [١] .

ويوضح الشيخ أبو بكر الجزائري : العلاقة القائمة بين الشيخ والمريد فيقول " إن الطريقة تعني اتصال المريد بالشيخ وارتباطه به حياً وميتاً . وذلك بواسطة ورد من الأذكار يقوم به المريد بإذن من الشيخ أول النهار وآخره ويلتزم به بموجب عقد بينه وبين الشيخ وهذا العقد يعرف بالعهد . وصورته أن يتعهد الطرف الأول وهو الشيخ بأن يخلص المريد من كل شدة ويخرجه من كل محنة متى ناداه مستغيثاً به . كما يشفع له يوم القيامة في دخول الجنة . ويتعهد الطرف الثاني . وهو المريد بأن يلتزم بالورد وآدابه فلا يتركه مدى الحياة كما يلتزم بلزوم الطريقة وعدم استبدالها بغيرها من سائر الطرق [٢] .

ولو كانت الطرق كلها على هذا النحو لكانت بدعة . ولكن هناك كثير من العهود تقوم على التوبة والاستقامة والصلاح . ولذلك يقول الدكتور / عامر النجار " إنتهت الطرق الصوفية إلى أن أصبحت عهداً بين شيخ ومريد على التوبة والاستقامة [٣]

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية " أن الطريقة الصوفية انتهت في العصور المتأخرة إلى بيعة بين الشيخ والمريد [٤] .

---

١) انظر مدخل إلى التصوف الإسلامي د/ التفتازاني ٢٣٥ ، ٢٣٦ والطرق الصوفية في مصر له أيضا ١٩ وسائل المجلس الأعلى للطرق الصوفية شبرا مصر ١٩٩١م والطرق الصوفية عامر النجار ٢١/٢٠ .

٢) انظر إلى التصوف يا عباد الله الشيخ أبو بكر الجزائري ١١ مطبعة المدني ط ١/ ١٤٠٨ ــ ١٩٨٧م وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي د/ محمد أحمد لوح ج ٣٤٤/١ .

٣) انظر الطرق الصوفية د/ عامر النجار ٢١ .

٤) انظر دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين . م . ت . هوتسما ، و . ارونولد ، ر . باسيت . هارتمان . إعداد وتحرير لجنة من العلماء بإشراف الأستاذ إبراهيم زكي خورشيد وزملاؤه ج ٦٨٤٨/٢٢ مركز الشارقة للإبداع الفكري ط ١ سنة ١٤١٢هـ / ١٩٩٨م .

فالعهد والبيعة لم يكونا موجودين لدي أرباب الفرق الصوفية في القرون المتقدمة وأصبحا شرطاً إلزامياً للسالك ــ أو المريد في القرون المتأخرة .

وأصبحت الطرق في القرون المتأخرة من الكثرة بمكان ــ وقد أحصى أحد الباحثين الطرق الموجودة الآن بنحو ثلاثمائة طريقة [١] .

وذكر أحد الآخرين تحقيقاً في جريدة أخبار اليوم المصرية جاء فيه "في مصر ٦٦ طريقة صوفية وثلاثة ملايين درويش يشكلون عالماً غريباً يعيش بيننا " [٢]

وهذه إحصائية قديمة ومن أراد الوقوف على العدد الحقيقي للطرق الصوفية فليراجع مجلة التصوف الإسلامي .

وهذه الطرق تتمايز فيما بينها بحسب غاياتها ومقاصدها وفلسفاتها . بل إن الطريقة الواحدة تختلف من شخص إلى شخص ومن مكان إلى مكان آخر

والخلاصة أن الطريقة استقرت على أنها مجموعة من الرسوم والقواعد يضعها مشايخ كل طريقة بحيث تختلف عن غيرها من رسوم وقواعد الطرق الأخرى [٣] وإنها بداية فردية وانتهت جماعية . بدأت بعلاقة خاصة يتجه فيها السالك إلى الله ثم انتهت بعهد أو بيعة بين الشيخ والمريد .

ثاني هذه المصطلحات : الجهاد :

ومعناه في اللغة كما جاء في لسان العرب لابن منظور مادة " جَهَدَ "

" الجَهْدُ ــ والجُهْدُ ــ الطاقة : تقول : اجْهَد جَهْدَكَ ــ وقيل : الجهَادُ : المشقة : ... وجَاهَدَ العدو ــ مجاهَدَةً وجهَاداً : قاتله : وجَاهَدَ في سبيل الله ــ وفي الحديث : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية . الجهاد : محاربة الأعداء وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل . والمراد بالنية إخلاص

---

١) انظر للموسوعة الصوفية د/ عبد المنعم الحفني ١١١٣ .

٢) انظر جريدة اخبار اليوم بتاريخ ١٩٧١/١٢/٢٥م وكتاب العقيدة والقوة معاً الأستاذ محمد عبد الله السمان ٣٠٠ دار الجيل بيروت لبنان ١/ ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

٣) انظر الموسوعة الصوفية د/ عبد المنعم الحفني ١١١٣ .

العمل لله . أي إنه لم يبق بعد فتح مكة هجرة لأنها قد صارت دار إسلام وإنما هو الإخلاص في الجهاد وقتال الكفار .

والجهاد:المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء.

وفي حديث الحسن : لا يَجْهَدُ الرجلُ ماله ثم يقعد يسألُ الناس . قال النضر :قوله :لا يَجْهَدُ الرجلُ ماله .أي يعطيه ويفرقه جميعه ها هنا. وههنا قال الحسن ذلك في قوله عز وجل "يسألونك ماذا ينفقون قل العفو " [(١)] اهـ

فالجهاد في اللغة : محاربة الأعداء مطلقا ويكون ذلك ببذل الطاقة واستفراغ ما في الوسع .

وفي الشرع : يدور معناه عند أغلب الفقهاء من أهل المذاهب على قتال المسلم للكافر بعد دعوته للإسلام وإبائه .

فعرفه الأحناف بأنه بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله بالنفس والمال واللسان أو غير ذلك . أو المبالغة في ذلك [(٢)] وبأنه " الدعاء إلى الدين الحق وقتال من لم يقبله " [(٣)] .

وعرفه المالكية بأنه"قتال مسلم كافراً غير ذي عهد لأعلاء كلمة الله تعالى [(٤)].

وعرفه الشافعية بأنه " قتال الكفار لنصرة الإسلام ويطلق على جهاد النفس والشيطان والمراد هنا الأول.وترجمه في التنبه بقتال المشركين [(٥)]

---

١) انظر لسان العرب لجمال الدين بن منظور ج ٢/٢٤١ دار الحديث القاهرة ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٣م

٢) انظر بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني ج ٩/٤٢٩٩ مطبعة الإمام بالقاهرة .

٣) حاشية رد المحتار . محمد أمين الشهير بابن عابدين على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه أبي حنيفة ج ٤/١٢١ ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر وفتح القدير لكمال الدين محمد بن عبد الواحد بن الهمام ج ٥/٤٣٦ ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

٤) انظر الشرح الصغير على أقرب المسالك الشيخ أحمد بن محمد الدردير ج ٢/٢٦٧ دار المعارف القاهرة .

٥) انظر حاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب لزكريا الأنصاري ــ الشيخ عبد الله الشرقاوي ج ٢/٣٩١ مطبعة الحلبي القاهرة ١٣٦٠ هـ ــ ١٩٤١م .

وقال الباجوري : الجهاد : أي القتال في سبيل الله مأخوذ من المجاهدة وهي المقاتلة لإقامة الدين ــ وهذا هو الجهاد الأصغر ــ وأما الجهاد الأكبر فهو مجاهدة النفس فلذلك كان رسول الله ﷺ يقول : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر [1] وسيأتي الرد على ذلك بالتفصيل .

وعرفه الحنابلة بأنه قتال الكفار [2] .

وبالتأمل في هذه التعريفات كلها نجد أنها متفقة على أن الجهاد شرعاً يراد به قتال المسلم للكافر غير المعاهد لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه ــ وزاد الأحناف " الدعاء إلى الدين الحق " وهو قيد لابد منه . لأن النصوص الشرعية دلت عليه وعدم ذكره في بقية التعاريف لوضوحه ولكونه معلوماً فلا يكون القتال إلا بعد الدعوة والامتناع عن قبولها [3] .

وكلمة الجهاد إذا أطلقت يراد بها المعنى المتقدم . ولا تنصرف إلى غير قتال الكفار إلا بقرينة تدل على ذلك [4] كما يقول ابن رشد الفقيه المالكي " إن الجهاد في سبيل الله إذا أطلق . فلا يقع بإطلاقه إلا على مجاهدة الكفار بالسيف حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون " [5] .

---

١) انظر حاشية الباجوري على شرح ابن قاسم الغزي على مختصر أبي شجاع ــ الشيخ إبراهيم الباجوري ج ٢٦٨/٢ مطبعة بولاق القاهرة ١٣٠٧هـ ــ والفقه الميسر في العبادات والمعاملات الشيخ أحمد عيسى عاشور ٣٢٧ مكتبة القرآن القاهرة ١٩٨٤م وراجع آثار الحرب في الفقه الإسلامي د/ وهبة الزحيلي ٣٣ دار الفكر دمشق ط ١٤١٩/٣هـ ــ ١٩٩٨م .

٢) انظر منتهى الإرادات لتقي الدين محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي الشهير بابن النجار ج ٢٢٨/١ ت الشيخ عبد الغني عبد الخالق ــ عالم الكتب بيروت لبنان ط ٢ سنة ١٤١٦هـ ــ ١٩٩٦م .

٣) انظر الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته د/ عبد الله أحمد القادري ج ٤٩/١ دار المنارة جدة السعودية ط ١٤١٣/٢هـ ــ ١٩٩٢م .

٤) انظر أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه د/ علي بن مطيع العلياني ١١٧ دار طيبة للنشر والتوزيع السعودية ط ١٤٢٤/٤هـ ــ ٢٠٠٣م .

٥) انظر المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات لابن رشد ج ٣٦٩/١ دار صادر بيروت لبنان د/ت .

وحكم الجهاد دائر بين فرض الكفاية والعين . ولكل حكم ما يناسبه من أحوال المسلمين . فإذا كانوا في قوة ومنعة وعزة كان الأول . وإذا نزل بهم الأعداء واحتلوا أرضهم وبلادهم كان الثاني . وقد يعبر عن الأول بجهاد الطلب وعن الثاني بجهاد الدفع (١) .

وحكى البابرتي الإجماع على فرض العين فقال " وأما العينية في النفير العام فبالإجماع لأنه من إغاثة الملهوف والمظلوم (٢)

وتعبير الفقهاء بفرض العين هو ما أكده القانون الدولي العام الذي يتضمن الدفاع عن الدولة ضد أي تدخل أجنبي . وجعل من حقها المجاهدة والمقاومة حتى تنال استقلالها . والفرق بينهما أن القانون يستمد أصوله من الغرب أما حكم الفقهاء فهو من صميم الإسلام . ناهيك بالأسبقية (٣) .

ثالثاً معنى المصطلحات : العصر الحديث :

اختلفت كلمة العلماء والباحثين في تحديد بداية العصر الحديث . تبعاً لاختلاف منهجيتهم في الكتابة من ناحية . ولتقييمهم للحوادث التاريخية الكبرى من ناحية أخرى .

فبعضهم يرى أن العصر الحديث يبدأ بتولي محمد علي حكم مصر عام ١٨٠٥م .

وبعضهم يرى أنه يبدأ بسقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م على اعتبار أنه من أكبر حوادث العصر وفواجع الدهر .

---

١) انظر أهمية الجهاد علي بن نفيع العلياني ١٢٤ ـــ ١٣٥ .

٢) انظر العناية على الهداية محمد بن محمود البابرتي بهامش شرح فتح القدير لابن الهمام الحنفي ج ٥/٤٤٠ وأهمية الجهاد ١٣٤ .

٣) انظر الجهاد في الإسلام قديماً وحديثاً للمستشرق الهولندي رودلف بيز ١٢٩ مركز الأهرام للترجمة والنشر والتوزيع القاهرة ط ١٤١٧/١هـ ـــ ١٩٩٦م .

ويرى الدكتور شوقي أبو خليل أن بداية العصر الحديث ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك . ويؤرخ له بفتح القسطنطينية سنة ١٤٣٥م فيقول " تبدأ الأعصر الحديثة بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م "[١] .

ولم يستطع أحد الجزم والقطع بالبداية . لأن هذه منهجيات مختلفة ووجهات نظر متباينة . وما يراه مؤرخ حدث هام . يراه آخر لا يمثل هذه الأهمية . وإذا كان الإنسان في خاصة نفسه لا يستطيع الجزم والقطع في مراحل عمره ـــ الطفولة ـــ والشباب والشيوخة . فما بالك بالعصور التاريخية التي تمثل تاريخ البشرية .

والعصر الحديث الذي نقصده هو ما كانت أحداثه التاريخية محصورة في القرنين التاسع عشر والعشرين . وهذا التحديد لا يخرج عن الفترة التي ذكرها العلماء والباحثون . لأن هذه الفترة التاريخية . هي الفترة التي منيت فيها البلاد العربية بالأحداث الجسام والمصائب العظام . من اهمها سقوط الخلافة الإسلامية . والاستعمار الغربي . الذي تعاني منه البلاد إلى

يومنا هذا وقد استطاع هذا الاستعمار أن يسيطر على معظم البلاد العربية فوقعت الجزائر والمغرب وتونس . ومصر والسودان . وليبيا . والعراق والأردن . تحت قبضة الفرنسيين والإيطاليين والبريطانيين[٢] .

" ووجد أبناء هذه البلاد أنهم هدف هذه الغزوات الاستعمارية التي جاءت لاحتلال أراضيهم . واستعمار أوطانهم . وتدمير حضارتهم . فكان لابد من التصدي دفاعاً عن شرف الإسلام . وكلمة التوحيد . وصار الجهاد أمراً محتماً . ومطلباً فرضه الله على المسلمين الذين أحسوا غزو ديارهم . وتحطيم مقدساتهم وتدنيس حضارتهم الزاهية عبر العصور . من هنا شهدت هذه البلاد ملاحم بطولية

---

١) النظر في التاريخ الإسلامي د/ شوقي أبو خليل ٩ دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ط الأولى ١٤١٢هـ ـــ ١٩٩١م .

٢) النظر الاستعمار في العصر الحديث ودوافعه الدينية د/ منقذ بن محمود السقار . مكة المكرمة . الحرم ١٤٢٧هـ . .

حقق المسلمون فيها انتصارات باهرة على جيوش الأوربيين المدججة بأحدث الأسلحة وفنون الحرب الحديثة . وسجل المسلمون على أرضهم مجازاً لا مثيل لها في تاريخ الحضارات [١] . وأجبروا الأوربيين على الرحيل معترفين بحرية البلاد واستقلالها .

إن هذه الفترة التاريخية " فترة العصر الحديث " موضوع بحثنا من أشد الفترات التاريخية وأصعبها على البلاد العربية والإسلامية ولذا كانت المقاومة هي الرد الطبيعي لهذا العدوان الغاشم .

صحيح لم تكن المقاومة في هذه الفترة التاريخية . من الطرق الصوفية وحدها . وإنما كانت عامة . إلا أن الطرق الصوفية ـــ كان لها الدور الأكبر في هذه المقاومة ـــ حتى استطاعت أن تؤسس دولاً وتنشأ إمبراطوريات لا تزال آثارها باقية إلى يومنا هذا ـــ كما سيأتي في ثنايا هذا البحث .

رابع هذه المصطلحات : ـــ التقويم ـــ مأخوذ من الفعل قوّم .

يقول الرازي " والقيمة واحدة القيم . وقوّم السلعة تقويماً " يعني قدرها " وأهل مكة يقولون " استقام السلعة " وهما بمعنى واحد [٢]

وإذا كان الفعل قوّم في اللغة يستعمل في الحسيات فإنا نستعمله في المعنويات ـــ ونعني به تقدير الأمر وبيانه والحكم عليه بالاستقامة وعدمها

والأنسب لموضوع بحثنا ـــ لفظ " التقويم " دون " التقييم " لصحة الأول وخطأ الثاني . ولذلك قلنا " دراسة نموذجية وتقويمه " ولم نقل تقييمة وقد اتخذت

---

١) انظر المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا د/ عبد الله عبد الرازق إبراهيم ١٠ ، ١١ سلسلة عالم المعرفة ـــ الكويت ع ١٣٩ ذو القعدة ١٤٠٩هـ ـــ يوليو ١٩٨٩م .

٢) انظر مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ٥٥٧ دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط ١ سنة ١٩٦٧م والصحاح في اللغة والعلوم ـــ معجم وسيط ـــ تجديد صحاح العلامة الجوهري إعداد وتصنيف نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي ١٩٦٦ دار الحضارة العربية بيروت لبنان ط الأولى ١٩٧٥م .

هذه المعلومة من الشيخ علي الطنطاوي وهو يتحدث عن كتاباته الأولى التي لا يرتضيها فيقول " ولكن ما قيمته حكم الإنسان على عمله ومدى صحة تقويمه إياه.. " [1] وجاء التعليق في أسفل الصفحة . تقول تقويم — ولا تقل تقيّم — فإن التقيمَ غلط — وأصلها — قام — أي قوم [2]

١) انظر ذكريات الشيخ علي الطنطاوي ج ١/٢٧٠ دار المنارة للنشر والتوزيع جدة السعودية ط ٣/ سنة ١٤٢٢هـ — ٢٠٠١م .

٢) السابق ٢٧٠ هامش (١) .

المبحث الأول

"الطرق الصوفية وأدلة الجهاد"

دعا القرآن إلى الجهاد وجعله فرضاً على المسلمين في آيات كثيرة من ذلك قوله تعالى ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [١] وفي الأنفال ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه﴾ [٢] وقوله ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً {٩٥}﴾ [٣] وقوله ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً{٧٤}﴾ [٤] وقوله في آيتي التحريم والتوبة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {٩}﴾ [٥] وقوله ﴿انفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {٤١}﴾ [٦] وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {٣٥} ﴾ [٧].

إن هذه الآيات وغيرها تدل على فرضية الجهاد ومشروعيته بألفاظ مختلفة وأساليب متعددة تارة بالجهاد وتارة بالقتال وثالثة بالنفير ـــ شحذاً للهمم وتقويه

١) البقرة آية ١٩٠ .
٢) الأنفال آية ٣٩ .
٣) النساء آية ٩٥ .
٤) النساء آية ٧٤ .
٥) التحريم آية ٩ والتوبة آية ١٩١ .
٦) التوبة آية ٤١ .
٧) المائدة آية ٣٥ .

للعزائم وإيقاظاً للنفوس ـــ حتى تحصل الغاية ويتم المراد وينتشر الإسلام ليعم نوره الأفاق .

كما وردت في السنة أدلة كثيرة أيضاً ـــ وقل أن تجد كتاباً من كتب الفقه أو من كتب الحديث أو التفسير قديماً أو حديثاً إلا وفيه كتاب عن الجهاد أو باب فيه ـــ من ذلك ـــ ما روى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال ـــ قال رسول الله (ﷺ) رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد [١] .

وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ـــ جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال دلني على عمل يعدل الجهاد . قال لا أجده . قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر ؟ ومن يستطيع ذلك يا رسول الله ؟ قال أبو هريرة إن فرس المجاهد ليستن في طوله [٢] فيكتب له حسنات " [٣].

وعنه أيضاً عن النبي (ﷺ) قال : انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة . ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل [٤]

وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ـــ قال رسول الله (ﷺ) لغدوة في سبيل الله أو روحة خير" من الدنيا وما فيها ـــ وفي رواية من حديث أبي هريرة " خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب " [٥]

---

١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٧٦/٢ وقال على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

٢) أي يذهب ويجئ في مرح ونشاط وهو مربوط في حبله ، انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج ٥/٦ المطبعة السلفية القاهرة .

٣) أخرجه البخاري ٢٧٨٥ فتح ٤/٦ ومسلم ١٤٩٨/٣ .

٤) أخرجه البخاري ٣٦ فتح الباري ٩٢/١ ومسلم ١٤٩٧/٣ .

٥) البخاري ٢٧٩٢ ، ٢٧٩٣ ، فتح الباري ١٣/٦ ومسلم ١٤٩٩/٣ .

وهذه الأحاديث وغيرها تدل في جملتها على مشروعية الجهاد وبيان فضله ــ وقد فهم منها الصوفية في عصرنا الحديث ــ أنما لجهاد الأعداء لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه ــ وطبقوا ذلك تطبيقاً عملياً في كثير من بلاد العالم الإسلامي .

وحدثنا التاريخ عن نماذج من رجال الطرق الصوفية جاهدوا الأعداء وقاوموا المستعمر وأذاقوه الويلات حتى تحقق لهم النصر والاستقلال ــ في مصر وليبيا والمغرب والجزائر والصومال وغيرها ــ من أمثال القائد والزعيم أحمد عرابي ــ وعمر المختار والأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ــ والأمير عبد القادر الجزائري[1] ــ ومحمد بن عبد الله حسن ــ ومحمد أحمد المهدي وغيرهم .

وظهر جهادهم من خلال الهجمة الأوروبية الاستعمارية الشرسة على بلاد العالم الإسلامي فسطروا أروع آيات الكفاح التي قضت بتخليدهم في صفحات التاريخ .

تأمل الكلمات التي أجاب بها الشيخ عمر المختار ــ وهو صوفي كبير على الجنرال الإيطالي غراسياني ــ يقول غراسياني " لماذا حاربت بشدة متواصلة حكومتنا .. قال عمر لأن ديني يأمرني بذلك ... فيقول له ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه ؟ قال عمر لا شيء إلا طردكم من بلادي لأنكم مغتصبون ــ أما الحرب ــ الجهاد ــ فهو فرض علينا . وما النصر إلا من عند الله ... "[2]

ويقول غراسياني معترفاً بجهاد الرجل الذي يدل على إيمانه وصدق " إن كلامه عن الدين والجهاد يدل بكل تأكيد على أنه مؤمن صادق . يتكلم عن الدين بكل حماس وتأثر .. "[3]

---

١) الطرق الصوفية في القارة الإفريقية د/ عبد الله عبد الرازق إبراهيم ٥ ط دار الثقافة بالقاهرة ط ٢٠٠٤/١م .

٢) انظر الشيخ الجليل عمر المختار نشأته وأعماله واستشهاده د/ علي محمد الصلابي ٨٩ ، ٩٠ المكتبة العصرية ــ صيدا بيروت لبنان ط ٢٠٠٧/١م ــ ١٤٢٧هـ .

٣) السابق ٩١ ، ٩٢ .

إن هذا القائد العظيم والصوفي الكبير انطلق في جهاده للإيطاليين من خلال عقيدته وإيمانه بكتاب الله وسنة رسول الله (ﷺ) اللذان يدعوان إلى الجهاد يقول الأستاذ حسني أدهم جرار " كان ولياً من أولياء الله .. وأتم الشباب وإن تقدمت به السن . تتدفق الثورة والحرارة من قلبه رغم شيخوخته ... وتلك طبيعة المجاهدين في سبيل الله الذين يخشون الله ولا يخشون أحداً غيره " [١] .

وبالرغم من عداوة غراسياني له لم يمنعه ذلك من وصفه بأنه قدسي [٢]

وفي فلسطين يأتي عز الدين القسام ـــ الصوفي الأزهري الذي ظل يجاهد الإنجليز حتى استشهد . يقول له حاكم لواء حيفا ـــ وهو من الإنجليز ... يا شيخ إنك متحرك وذو نشاط مناوئ لنا . فرد عليه الشيخ قائلاً بعد أن أخرج المصحف من جيب جبته . هذا الكتاب العظيم يأمرنا بالجهاد ولا نخالفه [٣]

وهذا هو الفهم الصحيح والسليم الذي تدل عليه آيات القرآن وأحاديث السنة ـــ وفي مقابل هذا الفهم جنح جماعة من الصوفية إلى القول بأن المقصود بالجهاد هو جهاد النفس . واحتجوا على ذلك بما روى في الخبر أن رسول الله (ﷺ) قال حين رجع من بعض غزواته " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" [٤] وهذا الخبر ذكره السهروردي محتجاً به وكذلك الشيخ إبراهيم الباجوري في حاشيته على شرح ابن قاسم الغزي[٥]

---

١) انظر القدوة الصالحة أخلاق قرآنية ونماذج ربانية الأستاذ حسني أدهم جرار ١٧٣ دار الضياء للنشر والتوزيع الأردن ط ١/١٤٠٥هـــ ١٩٨٥م .

٢) انظر عمر المختار د/ علي محمد الصلابي ٩١ .

٣) انظر ثورة الشهيد عز الدين القسام وأثرها في الكفاح الفلسطيني ـــ عوني العبيدي ٢١ مكتبة المنارة الزرقاء الأردن ـــ د/ت .

٤) انظر عوارف المعارف للإمام السهروردي ٨٢ ملحق بإحياء علوم الدين للإمام الغزالي الجزء الخامس دار المعرفة بيروت لبنان د/ت .

٥) انظر حاشية الباجوري على ابن قاسم الغزي للشيخ إبراهيم الباجوري ٢٦٨/٢ مطبعة بولاق القاهرة ١٣٠٧هـــ

ومن المعاصرين من زعم اتفاق العلماء على أن جهاد النفس هو الجهاد الأكبر فقال " اتفقت كلمة علماء المسلمين وفقهائهم على تسمية جهاد النفس والشيطان بالجهاد الأكبر وجهاد الأعداء بالجهاد الأصغر . ثم ذكر كلام الشيخ الباجوري المتقدم [١] .

فالمسألة تعدت فهم الصوفية المعاصرة إلا اتفاق العلماء والفقهاء على ذلك . بل عداها الصوفية إلى تقديم جهاد النفس على جهاد العدو . يقول الأستاذ شفقة " وأوهموهم ــ أي أوهم الصوفية بالمسلمين ــ أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس وهو مقدم على مجاهدة العدو " [٢] .

ووجدنا الجزولية وهي طريقة صوفية معاصرة ــ ومؤسسها هو أحمد بن مراد الجزولي ترى أن الجهاد إذا أطلق لا يراد به الإجهاد النفسي فقط ولذلك لم يشاركوا في أي معركة جهادية ضد أعداء الأمة ــ حتى إنه في حرب العراق ــ شارك الكثير من أهل الجزيرة " موطن الجزولية " في الجهاد باستثناء أتباع الجزولية . بل إن شيخهم بهمته الخادعة ثبط الكثير من أتباعه الذين ثارت في نفوسهم أشارة من حمية فقال لهم : إن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس [٣] كما تقدم "

ولما وجد الصوفية أنهم لا محالة في صدام مع الآيات القرآنية التي تدعوا إلى مجاهدة الأعداء ــ لم يترددوا في تأويلها فجاءت تأويلاتهم بعيدة ومستنكرة وتفسيراتهم غريبة [٤] ومستهجنة . من ذلك قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {٢٠٠} ﴾ [٥]

---

١) انظر آيات الجهاد في القرآن الكريم دراسة موضوعية وتاريخية وبيانية د/ كامل سلامة الدقس ١٩ دار البيان الكويت .

٢) التصوف بين الحق والخلق محمد فهر الشقفة ١٢٤ ، ١٢٥ الدار السلفية .

٣) انظر الجزولية خداع وتضليل الشيخ عبد الله عبد الرحمن الجزري ١٥٥ ط الثانية ١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م .

٤) انظر مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السيئ على الأمة الإسلامية . إدريس محمود إدريس ج ٨٩٨/٢ مكتبة الرشد الرياض ط الأولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م .

٥) آل عمران آية ٢٠٠ .

فقد فسروا الرباط ــ بالرباط لمجاهدة النفس ومحاسبتها . واحتجوا على ذلك بما روي داود بن صالح . قال ــ قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن يا ابن أخي ــ هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية " اصبروا وصابروا ورابطوا " ؟ قلت . لا . قال يا ابن أخي لم يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يربط فيه الخيل . ولكنه انتظار بالصلاة بعد الصلاة.فالرباط لجهاد النفس .والمقيم في الرباط مرابط يجاهد نفسه[١].

وقوله تعالى " وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل .. الآية [٢] وفسروا الجهاد حق الجهاد بجهاد النفس . واحتجوا على ذلك بالخبر المتقدم " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر "

كما احتجوا بأن بعض الصوفية كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو . فكتب إليه يا أخي كل الثغور مجتمعة لي في بيت واحد . والباب علي مردود . فكتب إليه أخوه ــ لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمت لاختلت أمور المسلمين وغلب الكفار . فلابد من الغزو والجهاد . فكتب إليه : يا أخي لو لزم الناس ما أنا عليه وقالوا في زواياهم وعلى سجادتهم الله أكبر . لانهدم سور القسطنطينية "[٣].

---

١) انظر عوارف المعارف للسهروردي ٨٢ ملحق بإحياء علوم الدين .

٢) الحج آية ٧٨ .

٣) انظر عوارف المعارف للسهروردي ٨٢ .

مناقشة هذه الحجج

الخبر الذي احتج به الصوفية للدلالة على أن المقصود بالجهاد — هو جهاد النفس — رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر — لا أصل له [١] .

وقد ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه من طريق يحي بن العلاء قال — حدثنا ليث عن عطاء بن أبي رباح عن جابر قال — قدم النبي ﷺ من غزاة له — فقال لهم رسول الله ﷺ قدمتم خير مقدم — وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . مجاهدة العبد هواه .. [٢]

وقال البيهقي عنه إسناده ضعيف وتبعه الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث الأحياء [٣] .

وحكم عليه السيوطي بالضعف في جامعه الصغير [٤] .

ويحي بن العلاء تكلم فيه علماء الجرح والتعديل كلاماً يحملنا على هجر روايته والزهد فيها . يقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في شأنه في التقريب — رمي بالوضع [٥] — أي أنه مهتم بوضع الحديث .

---

١) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ١١/١٩٧ ، ١٩٨ والصوفية في نظر الإسلام الأستاذ سميح عاطف الزين ٤٢٨ الشركة العالمية للكتاب . دار الكتاب العالمي بيروت لبنان ط الرابعة ١٤١٣هـ — ١٩٩٣م والجزنوية الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجزري ١٥٥ .

٢) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣/٤٩٣ دار الكتب العلمية بيروت لبنان د/ت

٣) المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار للحافظ زين الدين العراقي ملحق بإحياء علوم الدين للإمام الغزالي ج ٢/٨٤٩ دار المعرفة بيروت لبنان ط ١ سنة ٢٠٠٤م / ١٤٢٥هـ .

٤) انظر الجامع الصغير من حديث البشير النذير للإمام جلال الدين السيوطي ج ٣/١٢٤٦ تحقيق حمدي الدمرداش مكتبة الباز مكة المكرمة ط ٢/١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

٥) انظر التقريب للحافظ ابن حجر العسقلاني ٥٩٥ تحقيق محمد عوامة دار الرشيد سوريا ط ١٤١٨/٤هـ — ١٩٩٧م .

ويقول الإمام الذهبي عنه في الميزان . قال أبو حاتم ليس بالقوي وضعفه ابن معين . وقال الدار قطني متروك . وقال أحمد بن حنبل كذاب يضع الحديث [١] .

ويقول الشيخ الألباني عن خبره ـ رجعنا من الجهاد الأصغر ـ ضعيف[٢]

ومن قبل حكم عليه شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه مردود ولا أصل له وأن آيات القرآن الكريم تعارضه يقول " هذا الحديث لا أصل له ولم يروه أحداً من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله . وجهاد الكفار من أعظم الأعمال . بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان قال الله تعالى"لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما " [٣] وقال تعالى " أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله . والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم [٤] .. " [٥] .

ومن يتأمل كلام ابن تيمية يجد أنه لا يقتصر على رد الحديث بل يرى أنه يعارض آيات القرآن معارضة صريحة [٦] .

---

١) انظر ميزان الاعتدال في نقد الرجال للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ج ٦/٧١ ، ٧٢ تحقيق علي محمد البجاوي وفتحية علي البجاوي دار الفكر العربي د/ت .

٢) انظر ضعيف الجامع الصغير الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ج ٤/١١٨ ط المكتب الإسلامي .

٣) النساء آية ٩٥ .

٤) التوبة ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

٥)

٦) راجع في ذلك سبيل الدعوة الإسلامية محمد أمين المصري ٧١ ، ٧٢ دار الأرقم ط الأولى ١٤٠٠هـ .

وفوق ذلك فإن وصف قتال الكفار بالجهاد الأصغر . وجهاد النفس بالجهاد الأكبر مغالطة ولا دليل على ذلك من كتاب الله أو من سنة رسول الله ﷺ . ولا أدري كيف جعل الدكتور الدقس ذلك من قبيل ما اتفق عليه العلماء والفقهاء ؟ وهل ذكر الشيخ الباجوري ذلك يجعله كافياً ودليلاً على الاتفاق ؟ إن هذا لأمر عجيب " إن الشخص الذي يجاهد نفسه حقيقة حتى يتغلب عليها فإنه يسارع لامتثال أمر الله وأمر رسوله ﷺ بتلبية النداء إلى جهاد الكفار ومقارعتهم . ومن تأخر عن قتالهم فليس بمجاهد لنفسه على الحقيقة [(١)] .

فالتذرع بجهاد النفس قد يكون من الحيل الشيطانية الصادقة للمسلمين عن جهاد أعدائهم والأولى أن يسأل القائل ما مرادك بجهاد النفس ؟ هل تريد جهادها على تحقيق التوحيد والكفر بالطاغوت أم تريد تهذيبها وتزكيتها بالأذكار المستحبة وصيام التطوع وقيام الليل ونحو ذلك ؟ [(٢)]

فإن أردت الأول . فلا شك أن التوحيد هو رأس الأمر ولكن ينبغي لك أن تأتي بالاسم الشرعي لكيلا تلتبس على الناس فتقول مثلاً جهاد النفس على تحقيق التوحيد أكبر من غيره من الأعمال سيما والحديث المروي بتقسيم الجهاد بأكبر وأصغر غير صحيح كما تقدم [(٣)] .

وإن أردت الثاني . فلاشك أن قتال الكفار لإعلاء كلمة الله لمن قدر عليه أفضل من سائر التطوعات للأحاديث المتقدمة . وابن القيم رحمه الله أراد النوع الأول . وهو تحقيق التوحيد عندما جعل جهاد النفس أصلاً لجهاد الكفار يتضح ذلك من كلامه حيث يقول " ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد لنفسه في ذات الله . كما قال النبي ﷺ "المجاهد من جاهد نفسه في سبيل الله

---

١) انظر أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه / علي بن نفيع العلياني ١٢١ دار طيبة الرياض ط ٢/١٤٢٤هـ ـــ ٢٠٠٣م .

٢) السابق ١٢١ .

٣) أهمية الجهاد ١٢١ .

والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه " لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه . وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له . متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله . بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج . فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما . وبينهما عدو ثالث [١] لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده . وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما ويخذله ويرجف به . ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق . وترك الحظوظ وفوات اللذات والمشتهيات . ولا يمكنه أن يجاهد ذلك العدوين إلا بجهاده . فكان جهاده هو الأصل لجهادهما وهو الشيطان قال تعالى : "إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا" [٢] والأمر باتخاذه عدواً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته كأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتها وجاهدها [٣] "

فليس مقصود ابن القيم بجهاد النفس ما يتهمه بعض المتصوفة ومن قلدهم قديماً وحديثاً من أن جهادها هو تزكيتها بالذكر وسائر النوافل فقط . وإن هذا الجهاد هو الغاية وهو الأكبر الذي لا يلتفت ن حققه إلى ما هو دونه وبالتالي يكون من صفى باطنه بالأذكار والعبادات أفضل من المجاهد الذي يقاتل الكفار . لأن الأول يجاهد الجهاد الأكبر . والثاني يجاهد الجهاد الأصغر والمشتغل بالأكبر أفضل من المشتغل بالأصغر عند جميع العقلاء.

إن ابن القيم أراد بجهاد النفس التزام شرع الله بكاملة والدعوة إليه بما في ذلك تحقيق التوحيد والكفر بالطاغوت . ولاشك أن جهاد الكفار بالسيف هو ثمرة

---

١) يقصد به ابن القيم " الشيطان " .

٢) فاطر آية ٦ .

٣) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية ج ٣/٦ تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية ط ١٤٠١/٢هـ وأهمية الجهاد د/ علي نفيع العلياني ١٢٢ .

تحقيق التوحيد . فالكفر بالطاغوت هو اجتنابه وبغضه وغاية البغض المقاتلة والمحاربة " (١)

والخلاصة أن الخبر المروي غير صحيح ولا أصل له واهتمام الصوفية وأرباب الطرق بجهاد النفس دون جهاد العدو واعتقاد أن ذلك هو الجهاد الأكبر لا دليل عليه وإن الأول وهو جهاد النفس إذا لم يثمر جهاد العدو فلا فائدة فيه . إذ لا يعدوا أن يكون وقوفاً عند وسيلة لا توصل إلى غاية .

" فلو اشتغل رجل بالوضوء وكلما فرغ من وضوءه بدأه من أوله حتى ذهب وقت الفريضة كان عاصياً لله لا طائعاً . وبهذا يتضح أن إطلاق الجهاد الأكبر على جهاد النفس فيه إيهام وربما يكون تثبيطاً وتنويماً لمشاعر المسلمين . فقد يقول قائل مادمت مشتغلاً بالجهاد الأكبر فما الداعي إلى التشوق إلى الجهاد الأصغر . ورضي بواقعه الذي هو فيه ويصدق عليه حديث الرسول (ﷺ) " من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من شعب النفاق (٢) ... " (٣)

واحتجاجهم بآية آل عمران وتفسيرهم الرباط بالمرابطة لجهاد النفس – بعيد – والمقصود بالصبر والمصابرة – مصابرة الأعداء أي غالبوهم في الصبر على شداد الحرب . والرباط هو الرباط في الثغور لمجاهدة الأعداء أيضاً فقوله " ورابطوا" أي أقيموا في الثغور مرابطين خيلكم فيها كما يربطها أعداؤكم وهذا قول جمهور المسلمين (٤) .

---

١) آية الجهاد د/ علي بن نفيع العلياني ١٢٢ .

٢) صحيح مسلم شرح النووي ٥٦/١٣ دار إحياء التراث العربي بيروت ومكتبة المثنى بيروت لبنان د/ت .

٣) آية الجهاد / علي بن نفيع العلياني ١٢٢ ، ١٢٣ .

٤) انظر فتح القدير الجامع من فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد بن علي الشوكاني ج ٣٧١/١ مكتبة الرشد السعودية ط ١٤٢٤/٣هـ – ٢٠٠٣م .

والرباط يستعمل في ملازمة الثغور . وقد يستعمل في غيرها . ولكنه أصلي في المعنى الأول . كما قال الخليل وغيره [١].

ورد الشوكاني تفسير أبو سلمة بن عبد الرحمن قائلاً " وقد روى من تفاسير السلف غير هذا في سر الصبر على نوع من أنواع الطاعات والمصابرة على نوع آخر ولا تقوم بذلك حجة ، فالواجب الرجوع إلى المدلول اللغوي وقد قدمناه .

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الرباط ـــ وفيها التصريح بأن الرباط في سبيل الله وهو يرد ما قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن . فإن رسول الله (ﷺ) قد ندب إلى الرباط في سبيل الله وهو الجهاد فيحمل ما في الآية عليه . وقد ورد عنه أن سمي حراسة جيش المسلمين رباطاً . فأخرج الطبراني في الأوسط بسند جيد عن أنس قال . سئل رسول الله (ﷺ) عن أجر المرابط . فقال من رابط ليلة حارساً من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى .. [٢]... " [٣]

واحتجاجهم بآية الحج مردود وتفسيرهم للجهاد فيها بمجاهدة النفس بعيد[٤] أيضا .

والمقصود بالجهاد في الآية هو مجاهدة الأعداء وغزو الكفار إذا غزوا بلاد المسلمين [٥] وجعل الإمام الرازي هذه الآية في قتال الكفار خاصة وقال إن معنى حق جهاده أن لا يفعل إلاّ عبادة لا رغبة في الدنيا من حيث الاسم أو الغنيمة [٦] وقد ورد في الأثر ما يؤيد ذلك ـــ أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه

---

١) فتح القدير للشوكاني ج ٣٧١/١ .

٢) صحيح مسلم أخرجه الإمام مسلم ج ٢١٩/١ ومالك في الموطأ ج ١٦١/١ .

٣) فتح القدير للشوكاني ج ٣٧٢/١ .

٤) انظر مظاهر الإنحرافات العقدية عند الصوفية إدريس محمود إدريس ج ٩٠٠/٢ .

٥) انظر فتح القدير للشوكاني ١٤٣/٣ .

٦) انظر التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي المجلد الثاني عشر ٢٣ ـــ ٢٤ / ص ٦٣ ، ٦٤ منشورات دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ٢٠٠٤/٢م ـــ ١٤٢٥هـ .

في قوله وجاهدوا في الله حق جهاده . قال . جاهدوا عدو محمد حتى يدخلوا في الإسلام [١] " فتفسير الجهاد في الآية جهاد النفس خاصة . تخصيص بدون مخصص وقد قدمنا أن الخبر المروي في ذلك غير صحيح .

واحتجاجهم بما كتبه بعض الصوفية لأخ له يستدعيه للغزو . مخالف لمبادئ الإسلام التي أمرنا بالأخذ والأسباب . ومن الأسباب التي شرعها الإسلام للمسلم لرد كيد الأعداء . هو الجهاد في سبيل الله . أما أن يقعد المسلمون وينتظرون الهدام سور الأعداء فهذا أمر غريب ومنطق عجيب ليس من الإسلام في شيء [٢] .

كما أن شيوع هذا الفكر في وسط الناس اليوم يميت فيهم روح الجهاد والعزة والكرامة ويحيي فيهم الذلة والمهانة . وحتى لو كان لهذا القول شيء من الحجة . وما أظنه بذلك . فلا وجه له الآن . بعد أن احتل الأعداء أرضنا واستباحوا دماءنا . وهتكوا أعراضنا . وساموا سوء العذاب .

هذا وقد ترتب على فهم الطرق الصوفية لأدلة الجهاد آثار خطيرة . فمن فهمها وأعملها قاوم الأعداء وجاهدهم . ومن أهملها وأولها . هادن الأعداء . وعاونهم . وهذا ما نتناوله في المبحث الثاني . والثالث إن شاء الله .

---

١) انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي ج ٤٠٧/٤ مطبعة الأنوار المحمدية القاهرة د/ت .

٢) الانحرافات العقدية عند الصوفية إدريس محمود إدريس ٩٠٢/٢ .

المبحث الثاني

الطرق الصوفية المقاومة

سجلت الطرق الصوفية في العصر الحديث صفحات من البطولة في مجاهدة الأعداء ومقاومتهم في طول البلاد العربية والإسلامية وعرضها . وأذاقوا المستعمر الضربات الموجعة وأنزلوا به الوقائع المفجعة التي قضت مضاجعه وجعلته يرحل فرراً من هذه المقاومة معترفاً بحرية البلاد واستقلالها . يقول أحد الباحثين :

" وقل أن تجد من المجاهدين من عمل على إنقاذ الوطن من براثن الاستعمار لم يسلك الطريق الصوفي . لقد وجدوا أن من واجبهم محاربة العدوان والشر المادي كما كانوا يحاربون المآثم والشهوات . لأنها كلها من فصيلة واحدة تدمر الروح الإنساني . إن الوميض المتجدد لجهاد الصوفية لحربي عاد ليظهر واضحاً من خلال الهجمة الأوربية الاستعمارية على بلدان العالم الإسلامي فسطروا بذلك أروع آيات الكفاح وخلدهم التاريخ في صفحاته " (١) .

واستطاعت الطرق الصوفية أن تحول الزوايا والرباطات إلى قلعة عسكرية ووكراً للثورة على المستعمر وهذا ما أوضحه مارسيل سيميان في قوله " إن الجمعيات الدينية غالباً ما تتحول إلى وكر للثورة ضد الأجنبي وضد الرومي المدنس لأرض الإسلام " (٢) .

ويقول " لم تعد الزوايا مكاناً لتعليم القرآن الكريم فقط بل أصبحت وكراً للثورة ترسم في ظلام أركانها مخططات الانتفاضات " (٣) .

---

١) انظر الإطار النظامي عند الصوفية للأستاذ أسعد الخطيب ٩٧ مجلة التراث العربي تصدر عن اتحاد الكتاب العربي دمشق ع ٥٣ جماد الأولى ١٤١٤هـ ــ أكتوبر ١٩٩٣م .

٢) انظر الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية د/ التليلي العجيلي ٧٨ منشورات كلية الآداب بمنوبة ١٩٩٢م .

٣) السابق ٧٨ ، ٧٩ .

ويصف شارل بروسلان أتباع الطرق الصوفية فيقول " إنهم المليشيات المسلحة للدفاع عن الإسلام ونشر العقيدة .. مستعدة للإنطلاق بمجرد أول إشارة من قائدها " (١)

ويرى الدكتور أبو القاسم سعد الله ــ المؤرخ الجزائري الكبير ــ أن الطرق الصوفية لم تكن كلها محاربة أو مجاهدة من حيث المبدأ . ولكن أغلبها كان كذلك زمن التسلط الاستعماري الصليبي " (٢) .

ونقول إن معتقدنا هم الأغلبية ــ والجهاد ليس مقصوراً على حمل السلاح ــ وإن كان أحد أنواعه وأشهرها . ولكنه قد يكون بالكلمة أو بالفتوى ــ أو الدعم المادي والمعنوي وقد تكون الكلمة ثورة في الجنود فيكون وقعها على العدو كقاذفات اللهب أو كالصاعقة المدمرة .

وحديثنا في جانب المقاومة ــ عبارة عن نماذج وأنماط من معظم القارة الأفريقية طوال قرنين من الزمان . القرن التاسع عشر والقرن العشرين . وربما زاد ذلك قليلاً . لأن هذه الفترة الزمنية هي التي منيت فيها البلاد العربية والإسلامية بالاستعمار الأوربي " البريطاني والإيطالي والفرنسي والأسباني " .

وحكمنا بالمقاومة ينصب على الطريقة الصوفية بأكملها أو على مؤسسها باعتبار أنه قائدها الروحي الملهم . فتأتمر بأمره وتنتهي بنهيه ويؤثر بقراره فيها إيجاباً وسلباً . ولا تكون الطريقة طريقة إلا بالنزول على أمر شيخها ومؤسسها وقل أن تجد طريقة خرجت عن أمر مؤسسها أو شيخها . إن لم يكن ذلك معدوماً وإليك نماذج من الطرق الصوفية التي قاومت المستعمر وجاهدته في مختلف البلاد :

أ ــ في مصر : الثورة العرابية :

لا تعرف الثورة العرابية في كثير من المصادر إلا من الناحية السياسية أما من ناحيتها الروحية فلا يعرفها إلا من يبحث في ثنايا كتب التراجم . ويلتقط الكلمات من هنا وهناك ليرى هذا الجانب الخفي في حياة هذا القائد العظيم .

---

١) السابق ٧٩ .

٢) أنظر العامل الديني في الحركة الوطنية الجزائرية د/ أبو القاسم سعد الله ٣٢ مجلة الفيصل السعودية ع ١٣٨ ذو الحجة ١٤٠٨هـ ــ أغسطس ١٩٨٨م .

نعم لم تكن الثورة العرابية في مجموعها طريقة صوفية . وإنما باعتبار زعيمها أحمد عرابي باشا ١٨٤١ ـــ ١٩١١م الذي نشأ في بيئة صوفية وفي ذلك يذكر عرابي عن أبيه أنه كان شيخاً جليلاً عالماً ورعاً هو الشيخ محمد عرابي .. وأن جده تزوج شقيقة السيد أحمد الرفاعي الصيادي (١) وكان لهذه النشأة أثر بعيد في تكوين خلقه وشخصيته .

وقد جاء في بعض الكتابات " أحمد عرابي . مسلم صوفي جاور في الأزهر عامين . اتصاله وثيق مع العلماء ... وقد التف حوله جند مؤمنون يقضون الليل في الاستماع إلى تلاوة آيات القرآن الكريم . وفي حلقات الذكر (٢) .

وكان يعيش عيشة الزاهد المتقشف متأسياً في ذلك بالسلف الصالح وهو القائل " لا نجاح لأمة نبذت أحكام دينها ظهرياً . فلا فلاح لقوم استعبدوا شهواتهم" (٣) .

ويعتبر الإمام محمد عبده الأب الروحي للثورة العرابية أثناء الغزو الإنجليزي لمصر ١٨٨٢م . ومستشارها . وما قامت الثورة إلا بإذنه وتوجيهه (٤) . وقد تحمل في سبيل ذلك السجن والنفي (٥) .

وكان الشيخ صوفياً تأثر بشيخ قريب له يدعى الشيخ درويش خضر الذي سبقت له الأسفار في صحراء ليبيا حتى طرابلس وتلقى عن شيخ من تلك البلاد علوم الدين والتصوف على الطريقة الشاذلية (٦) .

---

١) انظر الإطار الدفاعي عند الصوفية الأستاذ أسعد الخطيب ١٠٠ .

٢) انظر الإسلام وحركات التحرير العربية د/ شوقي أبو خليل ٤٢ ـــ ٤٤ دار الرشيد ط الأولى ١٣٩٦هـ ـــ ١٩٧٦م ومؤسسو مصر الحديثة ماري رولات ٨٦ المكتب التجاري بيروت لبنان .

٣) الإطار الدفاعي ١٠٠ .

٤) الإسلام وحركات التحرر ٤٤ .

٥) الإطار الدفاعي ٩٣ .

٦) انظر دعوة الإصلاح الإسلامي بين الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر والدعاة المعاصرين في الشرق العربي د/ محمد فتحي عثمان ٤٤١ ، ٤٤٢ بحث في مجلة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ع ٤/١٤٠٠هـ ـــ ١٩٨٠م .

فالبداية الأولى للشيخ محمد عبده ــ بداية صوفية قادمة من المغرب [١] . ولما واصل الشيخ تعليمه وفتح الله عليه فاصبح إماماً أهل المغرب في حياته وبعد وفاته[٢] .

وكان للشيخ دور كبير في الحركات التحررية والإصلاحية التي وقعت في تلك البلاد ومع تلك البداية الصوفية فقد اتجه الشيخ في فكرة الإصلاحي بعد نضجه وجهة سلفية . وأخذ هذا الاتجاه يتعمق عنده شيئاً فشيئاً مع بقايا نزعة صوفية تطفوا مرة بعد أخرى ويصدق عليه قول تلميذه الشيخ رشيد رضا " إنه كان أشعرياً صوفياً ثم صار بالتدريج سلفياً " [٣] .

وفي مصر نشأ الشيخ حسن البنا ت ١٩٤٩م نشأة دينية صوفية وكان في بداية حياته على الطريقة الحصافية [٤] وكون جماعة في الإسماعيلية موطن عمله الأول عام ١٩٢٨م ورباها تربية سلوكية وجهادية على مبادئه فانطلقت إلى فلسطين وقاتلت الإنجليز واستشهد منهم الكثير . وكان الإنجليز يحملون لهذه الجماعة حساباً كبيراً.وقد جلى هذه المسألة واوضحها الأستاذ كامل الشريف في كتابه الأخوان المسلمون في حرب فلسطين .

وظل الشيخ البنا وفياً لهذه الطريقة ومستمراً عليها إلى آخر حياته كما صرح بذلك الشيخ أبي الحسن الندوي في كتابه"التفسير السياسي للإسلام"[١] ولكن

---

١) السابق ٤٤١ .

٢) السابق ٤٤١ .

٣) انظر تاريخ الأستاذ الإمام ــ محمد رشيد رضا ج ٢٠/١ ــ ٢٦ ، ١٠٦ ــ ١٠٨ ، ج ٥٧٤/٢ الحاشية مطبعة المنار القاهرة .

٤) الطريقة الحصافية تنسب إلى الشيخ حسنين الحصافي ــ المؤسس الأول لها وبينها وبين الطريقة الشاذلية صلة قوية . وتولى مشيخة الطريقة ابنه عبد الوهاب بعد وفاة والده ــ وقد تأثر الشيخ البنا بالوالد والولد كثيراً وللشيخ مسجد وضريح في دمنهور بمحافظة البحيرة .

(١) انظر ربانية لا رهبانية الشيخ أبو الحسن الندوي ١٣٢ ، ١٣٣ دار الفتح للطباعة والنشر بيروت لبنان ط ١٣٨٨/٢هــ ــ ١٩٦٩م .

الدكتور محمد فتحي عثمان يذكر أن الشيخ البنا تحول من الناحية الفكرية في أخريات حياته عن الاستشهاد بالغزالي " التوجه الصوفي " إلى إيراد كلام ابن تيمية وابن القيم رضي الله عنهما [١] .

ومن قبل الشيخ البنا وجماعته ـ أسرة البكري ـ تلك الأسرة التي لها تاريخ طويل في التصوف الإسلامي بمصر ـ ولها دورها البطولي في مقاومة الاستعمار الإنجليزي ومجاهدته ـ ينتهي نسبها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه [٢] فهي أسرة عريقة جمعت بين نقابة الأشراف ومشيخة الطرق الصوفية [٣] ونختار من أفراد هذه الأسرة الشيخ محمد توفيق البكري ـ الذي تربى تربية دينية وحمل شهادة من الأزهر ـ واتقن الفرنسية والتركية والإنجليزية إلى جانب العربية وزار أوربا مرتين . فاطلع وفهم المدنية الحديثة [٤] وتسلم بعد أبيه ـ الشيخ على البكري ـ مشيخة الطرق الصوفية . ونقابة الأشراف [٥] .

لقد قام هذا الشيخ بمقاومة الاستعمار الإنجليزي ـ وأخذ ينادي " مصر للمصريين . وأنا ضد أي احتلال فرنسي أو إيطالي أو بريطاني . إن البلاد قادرة على حكم نفسها بنفسها .

لقد جاهر بعدائه للاستعمار البريطاني وبدأ يبث الروح الوطنية بمفهومها الذي ساد في نهاية القرن ١٩ ومطلع القرن العشرين في مصر وهي اهتمام المصري بوطنه والتمسك بدعوة الجامعة الإسلامية فكرياً وعملياً [٦] .

---

١) انظر دعوة الإصلاح الإسلامي د/ محمد فتحي عثمان ٤٦٨ .

٢) تاريخ الطرق الصوفية في مصر في القرن التاسع عشر فريد دي يونج ١١ ترجمة عبد الحميد فهمي الجمال ط الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٥م .

٣) الإسلام وحركات التحرير العربية ٣٥ .

٤) السابق ٣٦ ـ ٣٨ .

٥) السابق ٣٦ .

٦) انظر محمد توفيق البكري ، د/ ماهر حسين فهمي ٧٣ سلسلة اعلام العرب ٦٤ والإسلام وحركات التحرر العربية ٣٧ .

واستطاع هذا الرجل الصوفي بما ملك من ناحية الأدب والبيان وبالقلم واللسان أن يفعل بنفوس المصريين وعقولهم إزاء الاحتلال البريطاني ما تفعله شعلة النار إذا ألقيت في بحر من البترول .

يقول الدكتور شوقي أبو خليل نقلا عن جريدة المؤيد إن البكري لم يصنع أكثر من محاولة تكتيل الرأي العام نحو هدف معين . وأكثر من تكريس المصري " وجعل يعصر في النفوس والعقول ما تفعله شعلة النار ألقيت في بحر من البترول " وقلمه في سبيل محاربة المستعمر وإيقاظ أبناء وطنه وبث روح المسئولية فيهم .. وظل هكذا حتى علت شهرته في مجابهة الاستعمار البريطاني لبلاده " [١] .

هذا وقد قام مشايخ الأزهر . وكثير منهم من ذوى الطرق الصوفية بدور كبير في مجاهدة المستعمر ومقاومته . فالأزهر كما كان روضة تلقى فيه العلوم الشرعية كان أثناء الاستعمار البريطاني قلعة حربية تعقد فيه الندوات وتنظم فيه اللقاءات وتخرج منه المظاهرات .وفي وقت كان الناس

لا يعرفون أحداً من البشر بعد الله عز وجل إلا مشايخ الأزهر .

وإذا كان الحديث عن مشايخ الأزهر فإننا لا ننسى الدور الذي قام به الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله في حرب أكتوبر ١٩٧٣م فدوره في دعم الجهاد وتأييد المجاهدين لا ينكر .

٢ - في ليبيا :

الطريقة السنوسية : لقد ارتبطت السنوسية بالصوفية وارتبطت الصوفية في ليبيا بالسنوسية . واستطاعت هذه الحركة بقيادة مؤسسها الأول الإمام محمد بن علي السنوسي ت ١٨٥٩م أن تحقق انتصارات كبيرة على الإيطاليين توجت في نهايتها بزوال الاحتلال وحصول ليبيا على استقلالها وسيادتها التامة في الخمسينات من القرن الماضي .

---

١) الإسلام وحركات التحرر العربية ٣٨ .

فالطريقة السنوسية باختصار هي التي حررت الدولة الليبية الحديثة وجعلتها تقبل على استقلالها .

والإمام السنوسي الكبير ١٨٥٩م من سلالة الأدارسة الذين يتصل نسبهم بعلي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء [١] وهو تلميذ أحمد بن إدريس الفاسي ت ١٨٥٣م رئيس الطريقة الخضرية الشاذلية [٢] ويرفض الدكتور أبو ريان أستاذ الفلسفة بكلية الآداب جامعة الإسكندرية أن تكون السنوسية فرعاً من الطريقة الشاذلية كما فهم بعض المؤرخين . بل هي على الوجه الأصح جمعية سنوسية قامت على أسسها الإدارة السنوسية لبرقة ولليبيا فيما بعد وذلك لأنها فقد تشكيلها الأول قامت على أساس حركة دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية [٣] .

وتفسيرنا لقوله حركة دينية – يعني انها صوفية – وعدم كونها فرعاً من الطريقة الشاذلية لا ينفي كونها طريقة صوفية مستقلة .

ويذكر الدكتور الصلابي أن الإمام السنوسي درس كافة الطرق الصوفية وانتقد خطاءها وعمل على تقنيد التصوف بالكتاب وسنة المصطفى (ﷺ) وحصل على إجازات من علماء راسخين وأصبح مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس ونال المشيخة الكبرى بها . وكانت فاس مركزاً للطرق الصوفية . وميدانا لنشاطها .. وكان من الطبيعي أن يتأثر بالنظام المغربي للصوفية .. ولقد استمر اهتمامه بالصوفية حتى أخر حياته . وبقى خطها واضحا في شخصيته [٤] .

---

١) انظر الحركة المهدية من ويكيبديا – الموسوعة الحرة شبكة الإنترنت ١ ، ٢ .

٢) انظر دراسات في تاريخ افريقية العربية الأستاذ عبد الكريم غرايبة ١٥ جامعة دمشق ط ١٩٦٠/١ وهدرزة في السياسة والتاريخ – الملك – العقيدة – المعارضة الليبية في الخارج بقلم الصادق شكري ج ٢/٣ شبكة الإنترنت .

٣) انظر الحركة الصوفية في الإسلام د/ محمد علي أبو ريان دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ط ١٩٩٤

٤) انظر الحركة السنوسية د/ محمد علي الصلابي دار البيان ط ١٩٩٩/١م . وهدرزة في السياسة والتاريخ الصادق شكري ج ٢/٣ .

وحياة الشيخ وتربيته وإنشاؤه وأحفاده من بعده للزوايا والرباطات . ووجود طرق صوفية أخرى كالرفاعية والشاذلية والأسمرية والقادرية وغيرها تؤكد أن الخط العام والاتجاه العام للطرق الصوفية في هذه البلاد [١] .

وكان لهذه الزوايا شيوخ يربون الأتباع على تعلم الرماية وفنون الحرب والقتال والاستعداد له في أي لحظة . كما أنها كانت منظمة تنظيماً دقيقاً . ولم تجرؤ الحكومات الاستعمارية في شمال أفريقيا على مسها [٢]

وقد تحولت هذه الزوايا أثناء الغزو الإيطالي لليبيا إلى معاقل حربية وحصون عسكرية . أذاقوهم من خلالها الويلات . وقتل من الليبيين الكثير ما يقارب المليون شهيد [٣] .

ومن ثمرات الحركة السنوسية المجاهد الكبير الشيخ عمر المختار ت ١٩٣١م والذي يسميه الليبيون شيخ الشهداء . وأسد الصحراء . وقد ارتبط الشيخ بالسنوسية ارتباطا روحياً كبيراً بكل ما يعني هذا الوصف من معنى أو ما يعرف عند الصوفية بعلاقة المريد بالشيخ فكان لا يقبل شيئاً ولا يبرم أمراً إلا إذا أذن له الأمير إدريس السنوسي .. وكان يوقع على محاضر اتفاقيات الهدنة التي كانت تحدث أحياناً مع الإيطاليين بالاسم التالي خادم الحضرة السنوسية [٤] .

وقد وهبه الله قوة بدنية وروحية عالية ـــ أما قوته البدنية ـــ فلما عرف عنه من شجاعة وإقدام وقد تجاوز السبعين من عمره ويمتطي صهوة فرسه ويجاهد عليه ويصول ويجول به في الصحراء الليبية لمقاومة الإيطاليين وقد ورث هذه الشجاعة من والده الذي كان معروفاً ومشهوراً [٥] بها .

---

١) انظر مدرزة في السياسة والتاريخ ج ٢/٣ .

٢) انظر حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستودارو الأمريكي مع تعليقات وإضافات الأمير شكيب ارسلان ج ٣٩٨/٢ ـــ ٤٠١ دار الفكر العربي القاهرة د/ت .

٣) انظر مدرزة في السياسة والتاريخ ج ٧/٤ .

٤) انظر السابق ج ١١/٤ ، ١٢ .

٥) انظر المختار أسد الصحراء ١ ، ٢ مجاهيل ومشاهير في موقع Ealon an luni

وأما قوته الروحية فيقصه الشيخ محمود الجهمي صاحبه ورفيقه في الجهاد أنه ما كان ينام ليلة حتى الصباح . ما كان ينام إلا ساعتين أو ثلاثة ثم يقوم ويتوضا فيصلي ويقرأ القرآن حتى الصباح وكان لا يزيد عن سبع حتى يختم القرآن [١].

وقد تركت الفترة التي قضاها الشيخ في زاويه الجغبوب وعمرة ستة عشر عاماً آثاراً ظلت باقية في سلوكه وتفكيره وصفاته طوال حياته [٢] .

يقول الدكتور شوقي أبو خليل " تعلم في الزاوية السنوسية في الجغبوب . واقامه محمد المهدي الادريسي شيخاً على زاوية "القصور" بالجبل الأخضر . وسافر معه إلى السودان سنة ١٣١٢هـ فاقيم بها شيخاً لزاوية "كلك" إلى سنة ١٣٢١هـ وعاد إلى برقة شيخاً لزاوية القصور .. " [٣]

إن هذه التربية الإيمانية العالية كانت سر حياته الروحية وقوته القتالية .

وتترامى الأنباء إلى المجاهد الكبير بقدوم القوات الإيطالية لاحتلال ليبيا والسيطرة عليها فيجمع المجاهدين ويعينه الأمير إدريس السنوسي قائداً عسكرياً نيابة عنه بعد أن توجه إلى مصر عام ١٩٢٢م ويقود الشيخ ومعه المجاهدون المعركة ضد الإيطاليين والتي استمرت من عام ١٩٢٣م إلى عام ١٩٣١م [٤] وينظم الشيخ الصفوف ويرتب الجنود ويتخذ من الجبل الأخضر مقراً ومعقلاً له . وتبدأ المعارك بينه وبين الإيطاليين .

ويذكر غراسياني القائد العام الإيطالي في بيان له المعارك التي وقعت بين جنوده والمختار فيقول " إنها كانت ٢٦٣ معركة . هذا ما عدا ما خاضه عمر المختار من المعارك في خلال عشرين سنة قبلها " [٥]

---

١) السابق ٢ .

٢) انظر الإطار الدفاعي عند الصوفية الأستاذ أسعد الخطيب ٩٧ ، ٩٨ .

٣) الإسلام وحركات التحرر العربية ١٣٨ .

٤) هدنة في السياسة والتاريخ د/ الصادق شكري ١٤/٤ .

٥) الإسلام وحركات التحرير العربية ١٣٩ .

وكان من أشهر المعارك التي خاضها المختار رحمه الله " معركة " الرحبية . وعقيرة المطمورة . وكرسة . وهي أسماء أماكن في الجبل الأخضر نسبت إليها تلك الوقائع " [١] .

واستمرت المعارك بينه وبين القوات الإيطالية ـــ واستطاع بقواته المتواضعة أن ينزل بهم الضربات الموجعة والخسائر الفادحة وأشبعهم ضرباً وقتلاً في الوقت الذي كانوا ينالون من المجاهدين معه . ولكنهم لم يستطيعوا النيل منه إلا بعد أن أصيب فرسه وسقط على الأرض جريحاً وسرعان ما قبضوا عليه وشكلوا له محكمة صورية سريعة حكمت بإعدامه شنقاً أمام جمهور غفير من أبناء البلاد عام ١٩٣١م . وينفذ الحكم ويسقط الجسد على الأرض . وتصعد الروح إلى السماء وتظل سيرته وتضحياته وجهاده نبراساً يقتبس منه المجاهدون الدروس والعبر إلى يومنا هذا [٢] .

ومن الآثار التي أحدثتها الحركة السنوسية وهي صوفية : "أنها كانت أساس الدولة الليبية الحديثة يقول أحد الباحثين " ولعل الدولة السنوسية التي قامت في ليبيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية إحدى الدول النادرة في تاريخ الإسلام التي أقامتها طريقة من الطرق الصوفية . ولم يتغير شكل الدولة وروحها إلا في عهد الرئيس معمر القذافي " [٣] كما أنها أحدثت دوراً إيجابياً في البلاد العربية المجاورة . إذ سرعان ما تأثرت بلاد المغرب العربي وحذت حذوها في الجهاد ومقاومة المستعمرين .

---

١) السابق ١٣٩ .

٢) راجع في ذلك عمر المختار الحلقة الأخيرة من الجهاد في ليبيا . طاهر أحمد الزاوي ـــ . دار المختار الإسلامي للنشر والتوزيع ط ٢٠٠٤/١م وحياة عمر المختار الأستاذ محمود شلبي ١٩ ـــ ١٩٥ دار الجيل بيروت لبنان ط ٢٠٠٤/٢م ... ١٩٩٠م وعمر المختار د/ علي محمد الصلابي ٩٣ ـــ ١٠٠ .

٣) انظر الطرق الصوفية في ... ٢٦ ونافذة على فكرة علي عزت بيجوفتش حركات التحرر الوطنية الأستاذ محمد ... عدس ١ ـــ ٥ مقال على شبكة الانترنت httpi w.w.w ...rgb news . com

وأهم آثارها في نظري ما أحدثته من تغير ملحوظ . في الزراعة والتعمير والآثار والصناعات والحرف المختلفة " فكانوا يستجلبون أصناف الأشجار الغريبة إلى بلادهم من أقاصي البلدان . وأدخلوا في الكفرة والجغبوب زراعات وغراساً لم يكن لأحد هناك عهد بها . وكان بعض الطلبة يتلمسون من السيد محمد السنوسي أن يعلمهم الكيمياء فيقول لهم "الكيمياء تحت سكة الحراث" فأحياناً يقول لهم " الكيمياء هي كد اليمين وعرق الجبين " وكان يسوق الطلبة والمريدين إلى القيام على الحرف والصناعات ويقول لهم "يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية وليس غيركم بأفضل منكم" وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف ويقول لهم وهو يشتغل معهم " يظن أهل الأوريقات والسبيحات [1] أنهم يسبقوننا عند الله . لا والله ما يسبقوننا " [2] .

إن الطريقة السنوسية " الصوفية " يجب أن تكون مثالاً يحتذي به لدى أرباب الطرق الصوفية الأخرى في جميع المجالات العملية .وإن التصوف لا يعني الانعزالية المقيتة والسلبية البغيضة بعيداً عن واقع الحياة ومشاكل الأمة [3] .

هكذا يجب أن يكون الطريق الصوفي قوة في العمل وأساساً في الإنتاج وحركة في الحياة وجهاداً في الميدان وعبادة في المساجد وتعليماً في المدارس .

وفي جملة واحدة " الحركة السنوسية حركة إصلاحية ديناميكية ــ جهادية ــ وتربوية ذات نفس صوفي . قاومت الجيوش الاستعمارية الغازية وسعت إلى ترسيخ قيم الإسلام في النفوس .. ووطأت قيم التعاون والتآخي والمحبة بين الناس ..

---

١) المقصود بأهل الأوريقات . العلماء . وبأهل السبيحات العابدين والقانتين فكأنه يريد أن يقول للمحترفين والصناع لا تظنوا أنكم دون العلماء وأثرها ومقاماً بمجرد كونكم صناعاً وعملة وكونهم هم علماء وقراء ــ وهذا ليزيدهم رغبة وشوقاً ويعلم الناس حرية الصناعة التي لا مدنية إلا بها " انظر حاضر العالم الإسلامي ج ١٦٤/٢ .

٢) السابق ج ١٦٣/٢ ، ١٦٤ .

٣) انظر الحركة الصوفية في الإسلام د/ محمد علي أبو ريان ٣٢٩ .

...ت زوايا التعليم . كافة أنواع العلوم والمهارات التي تفيد الناس في حياتهم شرت دين الإسلام في الكثير من بقاع المعمورة " [1].

٣ـ في تونس :

احتلت فرنسا تونس ودخلتها عام ١٨٨١م [2] وأرادت السيطرة علـى جميع المجالات فيها وخضوع أهلها لنظامهم الاستعماري . وكان من المنتظر من الطرق الصوفية الكثيرة [3] . هناك أن تقاوم هذا الاستعمار . ولكننا لم نجد إلا بعض مشايخ الطريقة الرحمانية [4] الذين قاموا بانتفاضات عديدة ضد الفرنسيين في نصف الثاني من القرن التاسع عشر [5] وكان لهذه القلة نفس نضالي تستطيع أن عول إنه لم يغب عن الساحة [6] .

ومن هؤلاء المشايخ علي بن عيسى شيخ زاوية الطريقة الرحمانية بالكاف فقد شجع الأهالي وحثهم على الوقوف في وجه القوات الفرنسية الداهمة عندما اقتربت منها [7] .

والشيخ أحمد بن عبد الملك " ١٨٢١م ـ ١٩٢١م " شيخ زاوية الطريقة الرحمانية بأولاد عون . والذي برهن على عدوانه للاستعمار سنة ١٨٨١م ولما ظهر ذلك منه ـ أقصاه الجنرال الفرنسي فيلبار ولم يعف عنه إلا سنة ١٨٨٨م [8] .

---

١) انظر مذكرة في السياسة والتاريخ د/ الصادق شكري ج ١/ ٢ .

٢) انظر الإسلام الطرقي دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية د/ لطيفة الأخضر ٣٨ سراس للنشر والتوزيع تونس .

٣) تذكر الدكتورة / لطيفة الأخضر إحصائية عن الطرق الصوفية في البلاد التونسية أنها بلغت عام ١٩٢٥م ٢٩ طريقة لها ٥٠٠ زاوية ، ٣١٠٦٩٩ من الأتباع . وهذه إحصائية قديمة وقد زاد العدد عن ذلك في العصر الحديث . السابق ٤٣ .

٤) تنسب إلى مؤسسها الجزائري الأول محمد بن عبد الرحمن القشتوي ت بين عام ١٧٩٣م ـ ١٧٩٤م فكان وصولها إلى تونس عن طريق زاوية الكاف انظر الإسلام الطرقي ٨٥ .

٥) السابق ٧٩ .

٦) السابق ٤٨ .

٧) انظر الطرق الصوفية د/ التليلي العجيلي ١٢١ .

٨) السابق ١٢١ .

والشيخ حمد بن إبراهيم بن عبد الملك ــ أحد رجالات زاوية سيدي عبد الملك ــ السابق ذكره ــ فقد قاوم انتصاب الحماية الفرنسية . ووجه قواها قرب الفحص . ولما انهزم هرب إلى جبل السرج [1] ومنه إلى طرابلس حيث استقر إلى أن توفي سنة ١٩٠١م [2] .

كما سجلت محاولته لمقاومة الاستعمار الفرنسي في أيامه الأولى من قبل مغمر الزاير شيخ زاوية بكدية الحلفاء بماجر إذ أنه وقف في وجه الطابور الذي كان يقوده فور جنول Forgennal لكنه لم يلبث أن فر إلى طرابلس التي عاد منها سنة ١٨٨٢م وبوفاته سنة ١٩٠٧م خلفه أخوه الأصغر عبد الحفيظ فكافح بدوره ضد الاستعمار لكنه بعد النضال هدأ وسكن [3].

ويذكر الدكتور التليلي العجيلي أن بعض الطرق الصوفية كانت وراء الحركات الوطنية التي قاومت المستعمر الفرنسي في الشمال والشمال الغربي والوسط والوسط الغربي بتونس [4] .

من خلال هذه النماذج التي قدمناها يتبين لنا أن بعض زوايا الطريقة الرحمانية كانت من أبرز زوايا الطرق على مستوى البلاد التي وقفت في وجه الغزو الفرنسي[5] لكنها في بعض مواقفها الأخرى لم تخل أحياناً من التردد والتذبذب كما حدث من علي بن عيسى المقدم . وهذا ما يدعو إلى العجب .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعدى إلى حدود المعاونة لفرنسا بدلاً من مقاومتها . وموالاتها بدلاً من معاداتها كما حدث من الشيخ محمد البشري الشريف شيخ الرحمانية الأكبر [6] .

---

١) قرب الوسلاتية من ولاية القيروان .
٢) الطرق الصوفية د/ التليلي ١٢١ .
٣) السابق ١٢١ ، ١٢٢ .
٤) السابق ١٢٣ ــ ١٢٩ .
٥) السابق ١٢٢ .
٦) انظر الإسلام الطرقي د/ لطيفة الأخضر ٨٠ ، ٨١ .

وكما حدث من الشيخ الأزهاري بن مصطفى بن عزوز شيخ الزاوية الرحمانية بنفطة الذي دعا إلى الإنخراط في الجندية للمساهمة في الحرب إلى جانب فرنسا [١].

وهذا أمر طبيعي . فإن الصوفي إذا لم يقاوم لابد أن يعاون . وإذا لم يعادي لابد أن يوالي . وهذا ما كان من معظم الطرق الصوفية التونسية . وقد ذكرنا بعض الزوايا من الطريقة الرحمانية من باب الحق والعدل والإنصاف . لأن الطرق الصوفية لها وعليها . ولا يمنعنا من ذكر ما لها أن نذكر ما عليها كما سيأتي في الفصل القادم إن شاء الله . وربما كان غياب الشخصية القيادية الكبرى والمؤثرة من امثال الخطابي والأمير عبد القادر الجزائري والسنوسي والمختار هو السبب في ذلك .

٤ ـ في الجزائر :

كثيرة هي الطرق الصوفية في الجزائر . وقد هب معظم هذه الطرق لمقاومة الاستعمار الفرنسي إبان احتلاله لها سنة ١٨٤٣م وكان على رأسها شيخ المجاهدين في العصر الحديث الأمير عبد القادر الجزائري ت ١٨٨٣م والذي ظل يجاهدهم حتى نفي إلى قطوان [٢] وكان في جهاده رمزاً للتضحية والفداء كما أصبحت قصة كفاحه رمزاً أيضا في تاريخ الأمة العربية في عصرها الحديث [٣] .

وقد نشأ هذا الأمير في أسرة متدينة صالحة ـ فكان أبوه " محي الدين ذا مكانه في الجزائريين وصاحب طريقة صوفية مشهورة هناك . هي الطريقة الشاذلية[٤] . كما كان جده الشيخ مصطفى الحسني صوفياً زاهداً وصاحب زاوية لتربية المريدين . وهذا ما أثر في أخلاق الأمير وسلوكه وإذا كان الوالد والجد

---

١) السابق ٨١ .

٢) انظر الأعلام . قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين خير الدين الزركلي ج ٤/٤٥ ، ٤٦ دار العلم للملايين بيروت لبنان ط ١٩٧٩/٤م .

٣) انظر القدوة الصالحة أخلاق قرآنية ونماذج ربانية حسن أدهم جرار ١٤٤ .

٤) انظر الإسلام وحركات التحرر العربية د/ شوقي أبو خليل ٦٨ .

صوفيان فلا غرابة في أن يكون الأمير صوفياً كذلك . ولذلك وصفه الشيخ إسماعيل باشا البغدادي فقال " إنه مالكي المذهب صوفي المشرب " [(١)] ولبس الخرقة القادرية من يد الأستاذ نقيب الأشراف وخليفة السيد عبد القادر الشيخ السيد محمود القادري ذي الفضل والمكانة المشهورة [(٢)] فكان قادرياً كما قال المؤرخ الفرنسي مارسيل ايميري [(٣)] كما كان نقشبنديا وقد أخذها عن علماء الشام عندما زارها في مطلع شبابه مع والده .

وسبب كثرة الطرق كثرة أسفار الأمير وزياراته لمختلف البلاد العربية . بغداد والشام . ومكة . وكان الأمير أثناء هذه الزيارات يلتقي بالمشايخ وأرباب الطرق فيؤخذ عنهم الطريقة . فأخذ النقشبندية من علماء الشام والشاذلية من علماء مكة [(٤)] وأخذ القادرية من علماء بغداد أثناء زيارته للشيخ عبد القادر الجيلاني [(٥)] .

والأمير قد جمع من هذه الفرق ــ وإن كان ذلك متنوعاً في النظام الطرقي لكن تأثره الأكبر كان بالقادرية . لأنها كانت من أكبر الطرق انتشاراً وذيوعاً في الجزائر .

وللأمير مؤلفات في التصوف منها كتابه المواقف في ثلاثة أجزاء [(٦)] وديوان شعره وهو مطبوع وأعلن في الوعظ والتصوف [(٧)] وعقله المستوفز [(٨)] وظل الأمير

---

١) انظر هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين إسماعيل باشا البغدادي ج ٥/٦٥ مكتبة المثنى بغداد مصورة على نسخة استانبول سنة ١٩٥١م .
٢) انظر حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر الشيخ عبد الرزاق البيطار ج ٢/٨٨٨ دار صادر بيروت .
٣) انظر التصوف والصوفية في الجزائر منتديات المهدي :
http . H.w.w.w olmehclg com
٤) انظر حلية البشر ج ٢/٨٩٨ .
٥) السابق ج ٢/٨٨٨ .
٦) انظر الأعلام للزركلي ج ٤/٤٥ ، ٤٦ وحلية البشر الشيخ البيطار ج ٢/٩٠٤ والإطار الدفاعي عند الصوفية ١٥٩ وقد أشار الأستاذ سعد الخطيب ومن قبله الزركلي إلى أن الكتاب مطبوع وصدر من دار النهضة العربية بدمشق ١٩٤٥م .
٧) الأعلام ج ٤/٤٦ والإطار الدفاعي ١٠٩ .
٨) حلية البشر ٢/٩٠٤ .

وفيا للتصوف باقياً عليه ومتمسكا به حتى أخريات حياته إلى أن مات في دمشق .
فكان يختلي للعبادة في المدينة سنة ١٢٨٠ هـ يعني في آخر حياته [١] ، ويبدو أنه ذا ميول لمحي الدين بن عربي ـ صاحب كتاب الفتوحات المكية ـ فقد كان يقرأه على تلاميذه وكان من تلاميذه الذين حضروا عليه هذا الكتاب ـ صاحب كتاب الحلية [٢] ـ كما صرح بذلك ـ حتى إنه لما مات دفن في الصالحية من دمشق في مدفن الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي شمال قبره ـ ليس بينه وبين الحائط الشمالي قبر آخر [٣] .

وكان تلميذه الشيخ عبد الرزاق البيطار من المغرمين به لدرجة إنه لم يعلق على شيء مما تقدم بل قال في وصفه " هو الهمام الكامل العارف . والإمام المتحلي بأعلى العوارف . الراسخ القدم في العلم الإلهي . والكاشف عن أسرار الحقائق حتى شهدها كما هي [٤] " وهذه الصفات لا تنطبق على إنسان إلا إذا كان التصوف له طريقاً ومنهاجاً في الحياة بأسرها .

ولما بايعه الجزائريون بالإمارة لم يتعامل بها مع رجال دولته . بل كانت علاقته بهم علاقة الشيخ الصوفي بأتباعه المريدين . ولذلك يقول د/ محمد فتحي عثمان متحفظاً في عبارته " وتبدو علاقته برجاله أكثر من مجرد علاقة زعيم قبلي مطاع . إذ تغشاها نزعة صوفية واضحة من علاقة الشيخ والمريدين ويجلي ثقافته الدينية كتاب المواقف وهو في التصوف " [٥]

وتصوف الأمير لم يكن تصوفاً نظرياً سلبياً . بل كان تصوفاً عملياً إيجابياً لعندما احتلت بلاده من قبل فرنسا واستعمرتها . اجتمع بالعلماء والأشراف

---

١) انظر حلية البشر ج ٨٩٩/٢ .
٢) السابق ج ٩٠٤/٢ .
٣) السابق ج ٩٠٤/٢ ، ٩٠٥ .
٤) انظر حلية البشر ج ٨٨٣/٢ والإطار الدفاعي عند الصوفية ٩٩ .
٥) انظر دعوة الإصلاح بين الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر والدعاة المعاصرين في الشرق العربي د/ محمد فتحي عثمان ١٣٦ .

وأعيان القبائل تحت شجرة عظيمة لمناقشة أمر هذا المستعمر الغازي . واجمعوا أمرهم على مبايعته بالإمارة والجهاد في سبيل الله لتحرير الجزائر وإقامة الشرع الحنيف . فأنشأ حكومة إسلامية برئاسته لتحقيق هذه الغاية . واتخذ مدينة المعسكر عاصمة له .. وبدأ يجمع رجال القبائل وأثار فيهم روح الجهاد . وواجه المستعمر بقوة أذهلته في كثير من المعارك التي خاضتها . ومن أشهر المعارك التي خاضها معهم ــ معركة وهران ــ ووهران منطقة تكتل القوى الفرنسية ــ ودامت المعركة ست ساعات ــ انتصر فيها عبد القادر بجيشه القليل وأسلحته المتواضعة المصنوعة في الجزائر [1] وكلما ازداد الأمير في تعداد جيشه وتحديث أسلحته ومواصلة معاركه كلما اشتدت فرنسا في إنزال الضربات الموجعة بالجزائريين ، ومكثت الحروب بينهما سبعة عشر عاماً [2] واستشهد كثير من الجزائريين حتى تناقص عددهم من ٤ إلى ٣ مليون في السنوات السبع الأولى من الاحتلال [3] .

وكان في استطاعة الأمير مواصلة الجهاد ومقاومة الفرنسيين . لولا انضمام سلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام إلى فرنسا فقد هددوه باستعمال القوة . فتعهد أن يتخلى عن مناصرة الأمير وإخراجه من بلاده التي لجأ إليها [4] وهذه حركة غدر وخيانة من سلطان المغرب أضعفت الأمير إضعافاً شديد وعدها الشيخ البيطار من الفلطات النفسانية فقال " وبقي الأمير مدافعاً ومهاجماً إلى أن سولت الفلطات النفسانية المخالفة للديانة الإسلامية لسلطان المغرب الاتحاد مع الفرنسيين لمحاربة الأمير"[5]

---

١) انظر الأعلام خير الدين الزركلي ج ٤٥/٤ ، ٤٦ والإسلام وحركات التحرر العربية ٧١ ، ٧٢ والقدوة الصالحة حسني إبراهيم جرار ١٤٥ ، ١٤٦ .

٢) انظر حلية البشر الشيخ عبد الرزاق البيطار ج ٨٩٢/٢ .

٣) انظر الإسلام وحركات التحرير العربية ٧٣ .

٤) الإسلام وحركات التحرير العربية د/ أبو خليل ٧٣ .

٥) انظر حلية البشر الشيخ عبد الرزاق البيطار ج ٨٩٢/٢ .

وبدأ الخناق يضيق على الأمير المجاهد حتى حاصرته فرنسا ونفذت ذخيرته فاضطر إلى التسليم للفرنسيين [1] واشترط شروطاً للتسليم رضي بها الفرنسيون عام ١٨٤٧م .

وبعدها نفي إلى تطوان . ومنها إلى أنبواز حيث أقام نيفاً وأربع سنين وزارة نابليون الثالث فسرحه مشترطاً أن لا يعود إلى الجزائر فزار باريس والاستانة واستقر في دمشق فتوفي بها عام ١٨٨٣م [2] كما تقدم .

وكان من الممكن أن ينتصر الأمير لولا مؤامرة الغدر والخيانة من سلطان المغرب وبعض القبائل [3] ولولا تآمر بعض الطرق الصوفية الأخرى وهي التيجانية يقول الدكتور محمد فتحي عثمان " وكان في مقدمة من عانى من مكائد اصطناع الاستعمار الفرنسي للطرقين الأمير عبد القادر نفسه رغم تكوينه الصوفي . إذ بارزة أتباع الطريقة التيجانية بالعداء وقد هتك أسفارهم وكشف دخائلهم وكانت له الغلبة عليهم [4] .

فتأمل تلك المقاومة التي تدعو إلى العجب ـ الأمير صوفي والطرق الصوفية هي التي جاهدت معه وقاومت المستعمر الفرنسي ـ ولولا مقاومة الطرق الصوفية [5] لما استطاع الأمير مواصلة الجهاد والطرق الصوفية " التيجانية " هي التي وقفت ضده وحاربته أيضاً ـ ألا ينبئ ذلك على خبث المستعمر ومكره ودهائه حيث استطاع أن يحدث هوه سخيفة بين الطرق الصوفية ويضرب بعضها ببعض ؟ كما ينبئ كذلك عن قابلية الطرق واستعدادها لهذا التلاعب .

---

١) السابق ج ٨٩٢/٢ ، ٨٩٣ .

٢) انظر الأعلام للزركلي ج ٤٥/٤ ، ٤٦ والإسلام وحركات التحرر العربية ٧٣ .

٣) انظر القدوة الصالحة حسن أدهم جرار ١٤٦ ، ١٤٧ والأعلام خير الدين الزركلي ج ٤٥/٢ ، ٤٦ .

٤) انظر دعوة الإصلاح الإسلامي بين الشيخ عبد الحميد بن باديس والدعاة المعاصرين في الشرق العربي د/ محمد فتحي عثمان ٤٣٨ .

٥) انظر الإسلام وحركات التحرير العربية د/ شوقي أبو خليل ٧١ .

وإذا كان الأمير قد استسلم لعدوه ورضخ لخصمه اللدود . مضطراً كما يقول الشيخ البيطار [١] بعد مشاورة وكلائه ووزرائه حيث سدت المناهج والمسالك ـــ وعز الخلاص ـــ ولات حين مناص [٢] .

فإن الذي لا نسلّم للأمير تقاضية مرتباً من عدوه ـــ الذي كان يحاربه بالأمس القريب وقد اعترف هو بذلك فقال إن إمبراطور فرنسا قد عين لي ما يكفيني ويكفي من معي [٣] .

وسجل الشيخ عبد الرزاق البيطار إجمال المعاش الذي يعاطاه من الفرنسيين بعد أن رجع إلى دمشق فقال " وبعد ان ودع الأمير الأمبراطور ورجال الدولة توجه إلى وطنه دمشق الشام وكان قد زيد له في معاشه في كل سنة خمسون ألف فرنك . فصار جملة معاشه في كل شهر ستمائة ليرة فرنساوية ـــ إثنا عشر ألف فرنك " [٤] .

ولم تقف فرنسا في استقطابها للأمير عند هذا الحد . بل أهدت له نيشاناً كبيراً أثناء لزيارته لباريس عام ١٨٦٧م لتضمن ولاءه وصداقته وعدم معاودته لمقاومتها مرة أخرى . وقد أظهر ولاؤه حين انهزمت فرنسا سنة ١٨٧٠م فأعلن كمال أسفه وتزين بنيشانها الأكبر . وتخلى عن ملاقاة الناس مدة [٥] واعتبر السنوسي ذلك من أخبار وفائه وكان الأولى أن يعتبرها من أخبار ضعف ولائه وبرائه [٦] .

---

١) انظر حلية البشر الشيخ عبد الرزاق البيطار ج ٨٩٣/٢ .

٢) انظر الأعلام خير الدين الزركلي ج ٤٥/٤ ، ٤٦ .

٣) انظر حلية البشر الشيخ عبد الرزاق البيطار ج ٨٩٦/٢ .

٤) انظر حلية البشر الشيخ عبد الرزاق البيطار ج ٩٠٣/٢ .

٥) انظر الرحلة الحجازية محمد بن علي السنوسي ج ٢٠٠/٣ ولقد نقلنا عن الانحرافات العقدية والعلمية د/ علي بن بخيت الزهراني ج ٥٤٠/١ .

٦) انظر الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وآثارها في حياة الأمة علي بن بخيت الزهراني ج ٥٤٠/١ تقديم الشيخ محمد قطب دار طيبة ـــ مكة المكرمة ـــ ودار عمار الشارقة ط ٣ سنة ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

واستطاعت فرنسا بذلك أن تكسب ولاء الأمير وصداقته . لدرجة أنه بدأ يعادي من يعاديها ويتبرأ ممن يحاربها . فحين قام ابنه " محي الدين " بإعلان الجهاد ضد الفرنسيين وأراد مواصلته مرة أخرى مع بعض القبائل ــ تبرأ منه الأمير ــ وكان ذلك سبباً في انفضاض القبائل عنه وفشل حركته . ويذكر الشيخ البيطار أن تبرأة الوالد من الولد كان بسبب الضغوط التي مارستها فرنسا عليه . فالوالد يقيم عندهم . وقد أكرموه غاية الإكرام ــ وليس من المعقول أن يكرموا الوالد في فرنسا . ويحاربهم الولد في الجزائر [1] . وأرادت فرنسا أن تفعل بالولد ما فعلته بالوالد فتضمن ولاءه هو الآخر وأن لا يعاود الجهاد مرة أخرى . فعرضت له معاشاً كبيراً . بشرط ذكره الشيخ البيطار بقوله " أن يكون من رعيتها هو وإخوته " ولكنه رفض فكان في موقفه هذا أفضل من أبيه . [2]

وبالتأمل في صفحات حياته نجد تحولاً عجيباً من الضد إلى الضد . فبداية الحياة كانت المقاومة . ونهايتها كانت المهادنة . بدايتها كان البراء . ونهايتها كان الولاء . لقد كان للأمير في بداية جهاده للفرنسيين فتوى تقول " بأن كل من يساعدهم فقد ارتد عن دينه " فماذا يقول هو عن موقفه الآن بعد أن تفرنس ؟ [3] .

ولو قارنا بين موقفه وموقف الشيخ عمر المختار لحكمنا بصحة موقف الثاني . الذي اثر الإعدام شنقاً حتى الموت ولم يستسلم . أما صاحبنا فقد استسلم لأعدائه وارتمى في أحضانهم وتقاضى مرتباً من أموالهم وعاش في بلادهم . يسرح فيها ويمرح . ناسياً أنه كان في يوم من الأيام أميراً للجزائر . وشيخاً للمجاهدين فيها . ثم قارن بينه وبين ولده محي الدين في ذلك وأياً ما كان الأمر . فإن جهاد الأمير قبل استسلامه محسوب له . وبعد الاستسلام محسوب عليه . ولا ينتهي الجهاد في الجزائر باستسلام الأمير ونفيه . فقد ظلت بعض الطرق الصوفية تقاوم المستعمر

---

١) انظر حلية البشر ج ١٤٢٨/٣هـ .

٢) السابق ج ١٤٢٩/٣ .

٣) انظر الإسلام وحركات التحرير العربية ٧١

الفرنسي بما أوتيت من قوة ممكنة . وكان من أبرز المجاهدين في جيش الأمير الشيخ محمد بن علال بن الولي الصالح الشيخ مبارك دفين القليعة ودفين زاويتها الذي تولى قيادة الجيوش . وخاض كبريات المعارك في نواحي وهران إلى أن سقط شهيداً في أحد المعارك وقطعت رأسه ووضعت في جراب من جلد وأرسلت إلى مريديه وأتباعه .

كما شهدت منطقة الظهرة في شهر يناير من عام ١٨٤٥م معركة هامة أطلق عليها الفرنسيون " إنتفاضة الطرق الصوفية " وذلك لمشاركة العديد من الطرق فيها ـــ كالرحمانية والقادرية ـــ والطيبية . وانضم الجعل من عرش أولاد رياح الساكن [1]جنوب مدينة تنس . والذي كان له شرف المشاركة في هذه الثورة[2]

وشهد ربوع القطر العديد من الثورات كان من أبرزها . ثورة الشريف محمد بن عبد الله المعروف بـــ " بومعزة " في منطقة الشلف والونشريس ١٨٤٥ ـــ ١٨٤٧م من أتباع الطريقة الطيبية فقد استنفر القبائل والأعراش بمنطقة الظهرة والشلف والونشريس واتسعت لتشمل البيطري والحضنة وجبال وبرة وسور الغزلان . ثم امتدت إلى نواحي أولاد جلال حيث وجدت الزاوية المختارية وشيخها الجليل المختار بن عبد الرحمن مقدم الطريقة الرحمانية كامل الدعم والمساعدة [3] وقد قتل من رجال بو معزة الكثير ولكن القادة الفرنسيين كانوا يرغبون في الحصول على رأسه هو تخلصاً من ثورته [4] .

١) أولاد رياح الساكن جنوب مدينة تنس الجزائرية . وقد ذهب ضحية هذا الانتقام ١٠٠٠ من الأنفس التجأوا إلى بعض الكهوف فراراً من الغزو ما نقض عليهم بليسيه وأوقد النار على أفواه الكهوف فمات جميع من فيها اختناقاً .انظر الإسلام وحركات التحرير العربية د/ شوقي أبو خليل ٧٢ ، ٧٣.

٢) انظر الطريقة وعلاقتها بالاستعمار منتديات المهدي ١ ـــ ٨

http . II . w . w . w . olmahely net

٣) انظر تاريخ الجزائر من ١٨٣٠ ـــ ١٩٦٢م المقاومات الشعبية ـــ مقال على شبكة الأنترنت .

٤) انظر مقال الكاتب الفرنسي فرانسوا ماسبيرو . فرنسا قتلت نصف مليون جزائري ما بين عام ١٨٣٠ ـــ ١٨٥٦م مقال على شبكة الانترنت .

كما قام الشيخ بو عمامة " محمد بن العربي بن إبراهيم المولود ما بين عام ١٨٣٨ ـــ ١٨٤٠م والذي ينتمي عقائدياً إلى الطريقة الطيبية . وإن كان ذلك لم يمنعه من التأثر بالطريقة السنوسية . قام بثورة مع كثير من أتباعه ومريديه في المناطق الصحراوية على الفرنسيين . واستمر هذا الشيخ يقاومهم أكثر من ثلاثة وعشرين سنة حتى أطلق عليه لقب الأمير عبد القادر الثاني . ولم تستطع القوات الفرنسية القضاء عليه رغم محاولاتها الكثيرة في ذلك حتى وافته المنية عام ١٩٠٧م ـــ فكانت ثورته امتداداً لثورة سبقتها بقيادة أولاد سيدي الشيخ " سي سليمان بن حمزة ومحمد بن سي حمزة " ويطلق عليهم أولاد سيدي الشيخ في جنـــوب وهران[١] .

ولا ينسى تاريخ الجزائر الحديث ثورة ابن ناصر " بناصر " بنشهرة ابن فرحات المولود عام ١٢١٩هـــ ١٨٠٩م قرب الأغواط . وكان على الطريقة القادرية . وكان كما يقول ابن منصور المؤرخ المغربي المشهور في بداية أمره موالياً للفرنسيين . ولذلك زلوه على قبائل الأرباح ومنحوه لقب أغا [٢] ولكنه انقلب عليهم ونبذ خدمتهم وشرع في مقاومتهم بالثورة عليهم مع بعض القبائل حتى اعتقله الفرنسيون . ووضع تحت الإقامة الجبرية . ومعه عدد كبير من أتباعه من رجال الأرباع . واستمر في جهاده إلى سنة ١٨٧٥م حتى أرغمه باي تونس على مغادرة بلاده إلى الشام . فركب سفينة متوجهة إلى بيروت . ومنها التحق بدمشق إلى أن توفي بها عام ١٨٨٤م [٣] .

وفي عام ١٨٦٤م قامت ثورة ولدي سيد الشيخ ثم ثورة الحاج محمد المقراني . والشيخ محمد بن الحداد شيخ الطريقة الرحمانية . في جبال الجرجرة . وشملت هذه الثورة بلاد زوادة ومقاطعة قسنطينة وذلك عام ١٨٧١م . واستغل الشيخ أحمد

---

١) انظر الطرقية وعلاقتها بالاستعمار ١ ـــ ٨ وتاريخ الجزائر ١٨٣٠ ـــ ١٩٦٢م المقاومة الشعبية .

٢) انظر أعلام المغرب العربي لابن منصور ج ٢١٦/١ ط المطبعة الملكية الرباط .

٣) السابق ٢١٦/١ وراجع حركات التحرر العربية د/ شوقي أبو خليل ٧٢ .

القراني هزيمة فرنسا في حربها مع ألمانيا لتخليص بلاده من فرنسا . وتحمس لهذه الثورة أتباع الطريقة الرحمانية .. ونجح الشيخ الحداد في التأثير على أتباعه الذين عرفوا بالإخوان إلى حد أن رابطة الطريقة أصبحت مقدمة على رباطة القبيلة . وكان الدين من بين عناصر الثورة الأولى [1] .

وسيطرة هذه الثورة على ثلثي أراضي الجزائر . وعزلت جميع الحاميات الفرنسية في المنطقة وقدر عدد الذين اشتركوا في هذه الثورة بنحو ١٥٠ ألفا منهم ١٢٠ ألف من الرحمانية [2] .

ومع أن هذه الثورة صادفت ظروفاً سيئة في فرنسا إلا أن عمرها كان قصيراً . ذلك أن بسمارك .. رأى أن يخفف الهزيمة عن فرنسا فاطلق عدد كثيراً من الأسرى ليساعدها على قمع ثورة الجزائر . ولسوء الحظ وقع الشيخ المقراني صريعاً في المعارك الأولى عام ١٨٧١م .. وخلفه أخوه الشيخ بو مرزاق المقراني . وكان أشد مراساً من اخيه وظل يجاهد هو ومن معه حتى اضطرتهم فرنسا إلى الخروج إلى الصحراء . واستمروا يتجولون فيها إلى أن أهلكهم الجوع والعطش حتى التقطتهم دورية فرنسية [3]

ولم تكتف فرنسا بذلك بل شكلت محكمة وحكمت بالإعدام على ستة آلاف من الثائرين ثم خفف الحكم بالنفي إلى جزيرة كالبدونيا الجديد [4] ومن بين هؤلاء بومرزاق واسرة الشيخ الحداد . كما فرضت عليهم غرامة قدرها ٣٦ مليون

---

١) الإسلام وحركات التحرير العربية ٧٤ ، ٧٥ .

٢) السابق ٧٥ .

٣) انظر الإسلام وحركات التحرر العربية ٧٥ ، ٧٦ وحدث في العام الهجري . ثورات منسية في رحلة النضال الجزائري الأستاذ مصطفى مشهور

٤) كالبدونيا . مستعمرة فرنسية في جنوب المحيط الهادي . وكان عدد المنفين إليها ٥٠٠ من كبار الثوار . انظر حركات التحرير ٧٦ .

فرنك فلما عجزوا عن دفعها صادرت أملاكهم وأجلتهم عن أرضهم وأعطتها لمهاجرين من الألزاس واللورين [١] .

ويذكر أحد الباحثين " أن دور مشايخ الطرق الصوفية في الجزائر والذين يسميهم بعض المؤرخين بالنخبة التقليدية أو النخبة القديمة لم تقتصر على تزعم حركات المقاومة المسلحة . بل وأيضاً على مقاومة سياسة التغريب والتبشير الفرنسية . ويرجع العديد من الكتاب الفرنسيين . فشل سياسة الفرنسة إلى الزوايا التي بقيت منتشرة في طول البلاد وعرضها . رغم قضاء الفرنسيين على الكثير منها . وهذا التحليل صحيح إلى حد بعيد . فإن هذه الزوايا .. تعد جمعيات سرية من الدرجة الأولى . وحين اكتشف الفرنسيون خطورة هذه الزوايا بعيد ثورة الطرق عام ١٨٤٥م اتبعوا معها طريقة " فرق تسد " لكي يمنعوا أو يضعفوا أي تحالف مستقبلي بين الجمعيات " [٢]

ويعتبر الأستاذ صلاح العقاد ثورة المقراني والحداد نهاية المقاومة الوطنية المسلحة إلا إذا استثنينا بعض المناوشات في الصحراء الجزائرية [٣] .

٥. المغرب :

يتبادر إلى الذهن عند ذكر المغرب جهاد بطل الريف وأسده ومؤسس جمهوريته الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي اجمع الناس على أنه أحق إنسان يلقب بطل الإسلام [٤]

---

١) الإسلام وحركات التحرير العربية ٧٦ ونقل ذلك من الجزائر أرض المعارك د/ يحي الدين زبان ٨٩ .

٢) انظر التصوف الثورة الروحية في الإسلام السفير محمد والي مدونات مكتوب abouzahraa مقال على شبكة الإنترنت .

٣) انظر المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر . د/ صلاح العقاد ١٢٧ ، ١٢٨ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ط ١٩٩٣م .

٤) انظر حاضر العالم الإسلامي لوثروب دارد الأمريكي مع مقدمات وإضافات أمير البيان شكيب أرسلان ج ٣/١٩٤ .

يقول عنه شكيب أرسلان " إنه بطل الإسلام . وأسده الضرغام . والعلم المفرد الذي سار بذكره القاصي والداني . والخاص والعام . لا . بل إذا نظر الناس بعين الإنصاف يجدون بطل العصر الحاضر بين جميع الأمم لا بين المسلمين وحدهم[١]

ولد هذا الأمير في بيت علم وجهاد في بلدة أجدير بشمال المغرب عام ١٢٩٩هـ ـ ١٣٨٢هـ ـ ١٨٨٢م ـ ١٩٦٣م . كما يقول الزركلي[٢] وحفظ القرآن في صغره . وبعث مع والده إلى القرويين بفاس . فتعلم العلوم العربية والشرعية ثم التحق بجامعة سلمنكا بأسبانيا [٣] فجمع بذلك بين الثقافة العربية . وبعض النواحي من الثقافة الأوربية [٤] ثم عين قاضياً بمدينة مليلة . ولما وجد ظلم الأسبان [٥] وما أحدثوه في بلاده من ظلم وعدوان ترك العمل معهم وانضم إلى رجال قبيلته .

ولم يكن تصوف الأمير وزهده أقل شأناً من شجاعته وبطولته . وربما كان تصوفه وزهده من أسباب شجاعته وبطولته . جاء في كتاب الأمير عبد الكريم الخطابي بطل الشمال الأفريقي " اعتكف في جزيرة رينيون " [٦] عشر سنوات . في رياضة روحية لصقل نفسه وتصفيتها خصوصاً . والأمير مسلم صوفي نشأ على محبة الله ورسوله وحب الصالحين . ولم يكن ليجاهد هذا الجهاد . ويسطر صفحات خالدة في التاريخ لو لم يكن كبير الإيمان . كبير القلب عظيم الهمة عبقري الصفات

---

١) السابق ج ١٨٤/٣ وتاريخ إفريقيا في العصر الحديث والمعاصر د/ شوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم ٢٣٧ ، ٢٣٨ دار الثقافة الدوحة ط ١ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٩٧م .

٢) انظر الأعلام للزركلي ج ٢١٦/٦ ، ٢١٧ .

٣) انظر تاريخ إفريقيا في العصر الحديث والمعاصر ٢٣٦ والأمير المجاهد عبد الكريم الخطابي أمير ثائر ودولة ناشئة الأستاذ مصطفى عاشور ٢ مقال على شبكة الإنترنت .

٤) انظر حاضر العالم الإسلامي ج ١٩٥/٣ والأمير المجاهد للأستاذ مصطفى عاشور ٢

٥) حاضر العالم الإسلامي ج ١٩٥/٣ .

٦) شرق المحيط الهندي .

جاعلاً مثله الأعلى دائماً أبداً الرسول الكريم محمد صلوات الله عليه وسلم [١] وكان لهذا الاعتكاف وتلك النشأة اثرهما على الأمير ليبدأ بعدهما رحلة طويلة من الكفاح ضد الأسباب [٢] والفرنسيين معا .

وعاش الأمير متصوفاً مجاهداً لم تغره المناصب والنياشين . عرض عليه محمد الخامس رتبة مارشال . ورصد له البرلمان الهندي منحة مالية فرفض ذلك كله[٣] .

ويصف المسيو جاك مارسيلياك الفرنسي . سكن الأمير وأعوانه فيقول " إنها كلها أبنية بسيطة ليس فيها شيء من صنعة البناء ولا تطاول البنيان ... وذكر منها المقعد الذي أستقبله فيه الأمير . وليس فيه شيء سوى حيطان مجيرة بالكلس البسيط بدون زخرف ولا نقش . وبعض كراسي من المتاع المأخوذ من الأسبان "[٤] وهذا مما يدل على زهد الأمير وتقشفه في الحياة كما يدل كذلك على أن المال لم يغريه والمنصب لم يطغيه . ولا عجب في ذلك فقد قيل إنه شريف فاطمي . ويجوز أن يكون قرشيا [٥] وفي ذلك رد على من قال إنه ليس بعربي ويذكر أحد الباحثين أن الأمير محمد ابن عبد الكريم كغيره من الزعماء السياسيين الذين تجمعهم قاسم مشترك هو التصوف فيقول : " ولوقفت طويلاً أمام كفاح الأمير عبد القادر الجزائري والأمير محمد عبد الكريم الخطابي . والسيد عمر المختار في ليبيا . وكان القاسم المشترك بين كل هذه الزعامات الإسلامية إنما تسير على هدى من التصوف . وهو ما لفت نظري وأوقف فكري . وملك على نفسي [٦] "

---

١) انظر الأمير عبد الكريم الخطابي . بطل الشمال الأفريقي . محمد عبد المنعم الخامي ومحمد عبد الوارث الصوفي ٨٨ ط دار الكتب العلمية ط ١٩٥٨/١م والإسلام وحركات التحرير ١٩٧ .

٢) انظر الإطار الدفاعي عند الصوفية ٩٩ .

٣) انظر منتديات ستار تايمز مقال على شبكة الإنترنت .

٤) حاضر العالم الإسلامي ج ٢٠٠/٣ وتاريخ أفريقيا الحديث المعاصر ٢٢٤ دار النهضة العربية بيروت لبنان ط/١٩٨١م

٥) السابق ج ١٩٤/٣ .

٦) انظر الطرق الصوفية في القارة الإفريقية د/ عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ٥ وأضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية له أيضاً ٢ والإسلام وحركات التحرير العربية ١٩٩ .

ولكن ما هي الطريقة الصوفية التي ينتسب إليها الأمير ؟

لا نعرف طريقة صوفية ينتمي إليها الأمير على وجه الجزم واليقين . ولكن الذي يبدوا أنه كان على الطريقة القادرية . لأنها من أكثر الطرق ذيوعاً وانتشاراً في المغرب عامة ومراكش خاصة . بلد الأمير . يقول احد الباحثين " وقد سيطرت الطريقة القادرية في مراكش على الحياة الدينية والاجتماعية طوال القرون التالية لدخولها . وهذا ما جعل المنطقة مستعدة لأية أفكار صوفية جديدة " [1]

وتصوف الأمير كان تصوفاً إيجابياً دفعه إلى مجاهدة المستعمر ومقاومته في بلاده بعد ما رأى احتلالهم للأرض . واغتصابهم للعرض[2] ونهبهم للمال وإذلالهم للرجال . " مجمع أنصاراً من ورباغل قبيلته . وقد آلت إليه زعامتها بعد أبيه وقاتل الأسبان فظفر بهم في معركة أنوال من جبال الريف في يوليو عام ١٩٢١[3] .

وغنم فيها مغانم عظيمة [4] كانت عدة وعتاداً له في مواصلة قتاله لهم . وقد وصف المؤرخون هزيمة أسبانيا أنها كانت قاسية .. وقد هزمها هزة عنيفة في تاريخها الحديث [5] .

ويقول الدكتور جلال يحي " لم يكن أي جيش أوربي قد ذاق هذه الهزيمة الساحقة على أيدي الوطنيين فيما وراء البحار منذ هزيمة القوات الإيطالية في عدوة سنة ١٨٩٦م [6] إذ لم تتعود أوربا أن تجد أمة إسلامية غالبة على أمة مسيحية . ولا ترى أمة مبتدية أو غير متمدنة ظاهرة على أمة متمدنة راقية . لاسيما وهوة

---

١) انظر الطرق الصوفية د/ عبد الله عبد الرزاق ٣٢ واضواء على الطرق الصوفية له أيضاً ٣٦ ، ٣٧ والدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية توماس ارنولد ٣٦٥ ترجمة حسن إبراهيم حسن وزملاؤه . مكتبة النهضة المصرية القاهرة ط ١٩٧٠/٣م

٢) انظر حاضر العالم الإسلامي ج ١٩٥/٣ .

٣) انظر الأعلام للزركلي ج ٢١٦/٦ ، ٢١٧ .

٤) انظر حاضر العالم الإسلامي ج ١٩٦/٣ ، ١٩٧ وتاريخ المغرب الكبير د/ جلال يحي ج ١٢٧/٤

٥) تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر ٢٢٤ .

٦) تاريخ المغرب الكبير ج ١٢٧/٤ .

الفرق بينهما عميقة جداً في العدد [١] والعدد وتتابعت معاركه معهم فاحتل سفشاون ١٩٢٥م وحاول احتلال تطوان وأرسل من يهدد ثائرة في جيش قواته مائة ألف [٢] وإن كان هذا لا يقارن بجيش الأسبان وآلاتهم الحربية الجبارة حتى إنهم رموا قرى الريف بالغازات السامة .فقتلوا كثيراً من الأطفال والنساء والضعفاء[٣].

وخاف الفرنسيون إمتداد ثورة الأمير إلى داخل المغرب فتحالفوا مع الأسبان وأطبقت عليه الدولتان فاستسلم مضطراً إلى الفرنسيين في ١٩٢٦/٢٥م وكان سبب ذلك ضعف قواته إذا ما قورنت بقوة الدولتين ولذلك اعتبر مواصلة الجهاد انتحاراً [٤] وخيانة بعض قرى الريف حيث استطاع الأسبان أن يرشوا بعض القبائل " قلعية " و " بويحي " بواسطة رجل يقال له عبد القادر بن شلال فانحازوا إلى الأسبان . ولولا خيانة هذه القبائل لم يبق أحد من الأسبان في تلك الديار [٥] بالإضافة إلى استسلام بعض القبائل [٦] الأخرى وآخر الأسباب استخدام الفرنسيين لبعض ذوى النفوس الضعيفة من أصحاب الطرق الصوفية حيث أمدوهم بالمال والسلاح ليحدثوا اضطرابات في دولة الريف . ولكن قوة الريفيين وحسن تنظيمهم وقدراتهم القتالية فوتت عليهم هذه الفرصة وخسر الفرنسيون خسارة فادحة [٧]

وقد كشفت هذه الفعلة للأمير عن حقيقة الطرق الصوفية في البلاد وإنهم ليسوا على قلب رجل واحد وإنهم لم يتفقوا فيما بينهم ومن السهل استدراجهم .

---

١) انظر حاضر العالم الإسلامي ج ١٨٦/٣ .

٢) الأعلام للزركلي ٢١٦/٦ .

٣) أنظر تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر د/ شوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم ٢٣٥ .

٤) انظر حاضر العالم الإسلامي ١٩٠/٣ .

٥) السابق ج ١٩٦/٣ .

٦) انظر المغرب الكبير في الفترة المعاصرة . وحركات التحرر والاستقلال د/ جلال يحي ج ١٨٦/٤ ، ١٨٧.

٧) انظر تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر د/ شوقي الجمل وزميله ٢٣٠ والأمير المجاهد عبد الكريم الخطابي أمير ثائر ودولة ناشئة مصطفى عاشور ٦ مقال على شبكة الإنترنت

وإزاء هذه الأسباب رأى الأمير أن أقل الخسائر والأضرار هو الاستسلام . بعد أن أقام دولة وأحيا أمة وأنار طريق الجهاد للسالكين من بعده وفي يوم ٢٧ مايو عام ١٩٢٦م أمر بإطلاق سراح الأسرى الأوروبيين ودخل على القوات الفرنسية كقائد أعلى وأدت له القوات التحية العسكرية وانطلق الأمير على صهوة جواده ــ يرافقه اثنان وعشرون فارساً إلى قرية ستاد حيث طلبوا الحماية من شريفها الذي نصحهم بالاستسلام للفرنسيين . وباستسلامه انهارت المقاومة في الريف [١] .

وأخذته فرنسا ونفته إلى جزيرة ريونيون في بحر الهند وعاش الرجل وأسرته وبعض أتباعه أكثر من عشرين سنة قضاها في الصلاة والعبادة وفي عام ١٩٤٧م قررت فرنسا نقل الخطابي وأسرته إليها لتضغط به على الملك محمد الخامس لمطالبته الدائمة بالاستقلال غير أنها استجارت من الرمضاء بالنار . فعندما وصلت الباخرة التي تقله إلى ميناء بورسعيد التجأ إلى السلطات المصرية التي رحبت ببقائه على أراضيها واستمر بها إلى أن توفي عام ١٩٦٣م [٢] .

وإذا كانا الأمير عبد القادر الجزائري والأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي قد استسلما لخصميهما . إلا أن هناك فرقاً بين الاستسلامين . فاستسلام الجزائري ترتب عليه التحول من الضد إلى الضد ووصل به الأمر إلى منع ابنه من مجاهدة المستعمر ومقاومة المحتل وقد والى فرنسا وارتمى في أحضانها وتزينا بنيشانها وعاش على نفقتها . وهذا كله لم يفعله الأمير الخطابي .

وتذكر المصادر أن الطريقة الدرقاوية ــ وهي فرع من الشاذلية [٣] وتنسب إلى العربي الدرقاوي ت عام ١٢٣٩هـ [٤] كان لها دوراً فاعلاً في مقاومة الاستعمار الفرنسي في المغرب [٥]

---

١) انظر تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر ٢٢٥ والمغرب الكبير د/ جلال يحي ج ١٩٧/٤ .

٢) انظر الأعلام للزركلي ج ٢١٧/٦ والمغرب الكبير د/ جلال يحي ج ١٩٧/٤ وتاريخ افريقيا د/ شوقي الجمل وزميله ٢٣٥ ، ٢٣٦ والأمير المجاهد عبد الكريم الخطابي أمير ثائر ودولة ناشئة مصطفى عاشور ٨ .

٣) انظر نظرية المؤامرة أوهم أم حقيقة ؟ الصوفية / موفق صادق العطار ٣٣٧ دار الأوائل سورية دمشق ط ٢٠٠٦/١م .

٤) انظر حركة الدعوة بين القبائل الأمازيغية الأستاذ أحمد بكيت محمد ١ ــ ٤ .

٥) انظر حاضر العالم الإسلامي ج ٢٩٦/٣ والإطار الدفاعي عند الصوفية أسعد الخطيب ٩٩ .

ويناقض هذا القول أحد الباحثين ويقول أن ليوتي Louty المقيم العام الفرنسي في المغرب .. استغل المناقشات الشخصية للإيقاع بين زعماء الثورة وإحداث فرقة في صفوف القوات وراح يتحالف مع بعض مشايخ الطرق الصوفية وخصوصاً شيخ الطريقة الدرقاوية . لكن نجاح عبد الكريم وقضائه على خصمه الريسولي جعل القبائل المترددة تنضم إليه وفشلت دبلوماسية ليوتي في الإيقاع بين الزعماء في منطقة الريف " [1] وربما كان ذلك في أول الأمر لكن نجاح الأمير عبد الكريم في القضاء على خصمه وانتصاره على المحتل جعل القبائل المترددة تنضم إليه وتدخل تحت لوائه وهذا ما كان من أمر الدرقاوية .

وإذا كان الأمير قد استسلم ونفاه الفرنسيون إلى ريونيون فإنه قد خلف عدداً كبيراً من المريدين حملوا بعده راية الكفاح ونعموا بقطف ثمار جهادهم [2] وكلل ذلك باستقلال المغرب في الخمسينات من القرن العشرين

٦. في الصومال :

في نهاية القرن التاسع عشر احتلت الصومال من قبل بريطانيا وإيطاليا وتقاسموها فيما بينهم . واستفاد الأحباش من عمليات التقسيم فتوسعوا على حساب جيرانهم طبقاً لقرارات مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ ــ ١٨٨٥م [3] .

وفي تلك البقعة ظهرت شخصية الزعيم والمجاهد الكبير محمد عبد الله حسن الذي قاد جهاد المسلمين وجنود الموحدين ضد قوى المستعمرين .

وهذا القائد في الأصل من قبيلة عربية هاجرت لهذه المنطقة في القرن السابع الميلادي واستوطنتها وكانت ولادته في ١٧ إبريل عام ١٨٦٤م بالقرب من بوهوتلي Bohotly في شمال الصومال .. ولا يعرف إلا القليل عن والد السيد

---

١) انظر تاريخ افريقيا الحديث د/ شوقي الجمل وزميله ٢٣٠ وتاريخ المغرب في القرن العشرين روم لاندو ١٥٣ ترجمة نقولا زيادة ط بيروت لبنان ١٩٦٣م .

٢) انظر الإطار الدفاعي عند الصوفية ٩٩ .

٣) انظر المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا د/ عبد الله عبد الرازق إبراهيم ٢٢١ سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٣٩ / ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م .

محمد عبد حسن لكنه كان مهتماً بتعليم ابنه . وكان ينتمي إلى فرع هجري من الأوجادين الجنوبية التي كانت تحت الإدارة الحبشية [١]

أرسله والده إلى مدارس القرآن الكريم .. وما أن انتهى من حفظ القرآن حتى شارك أستاذه في تحفيظ الطلاب لهذا الكتاب الكريم . وبدأت مرحلة جديدة من حياته أستهلها بالاتصال بالعلماء والشيوخ المحليين بقصد التزود بالمعارف الإسلامية والعلوم الشرعية والأوربية [٢] وحج بيت الله الحرام . وتلقى مبادئ الثورة المهدية في الحرم النبوي الشريف .ثم عاد إلى الأوجادين فالتف حوله الطلاب وأخذ يلقنهم تعاليم الدين وأصول الجهاد [٣] وقد وجدوا فيه العالم المثقف الذي يساعدهم على فهم علوم الدين فانسوا به ووقفوا معه وكانوا نواه جنوده المخلصين [٤]

وتأثر الشيخ بالطرق الصوفية التي كانت سائدة في الصومال . فهناك الطريقة القادرية والصالحية والأحمدية والرفاعية [٥] وغيرها . وقد لعبت هذه الطرق دوراً بارزاً في تاريخ الصومال قديماً وحديثاً . وخاصة الطريقة الصالحية في مجاهدة المستعمر ومقاومة المحتل .

وكان السيد محمد عبد الله حسن من ابرز خلفاء شيخ الطريقة الصالحية . ويدعي محمد صالح الراشدي ت ١٨٥٤ — ١٩١٩م [٩] والصالحية مشتقة من الطريقة الأحمدية التي أسسها الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي ١٧٥٨ — ١٨٣٦م[٧] .

---

١) انظر المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا د/ عبد الله عبد الرازق إبراهيم ٢٢٤ وتاريخ المسلمين في افريقيا ومشكلاتهم د/ شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق إبراهيم ٢٨ دار الثقافة للنشر والتوزيع الفجالة القاهرة ١٩٩٦م .

٢) المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا ٢٢٤ .

٣) الإسلام وحركة التحرر العربية د/ شوقي ابو خليل ١٢٩ .

٤) انظر المسلمون والاستعمار الأوربي وقد نقل ذلك من تطور حركة الجهاد الوطني في الصومال ١٩٠٠ — ١٩٦٠م تمام همام تمام ٢٨ ط القاهرة ١٩٨٣م .

٥) انظر الصومال بين الأمس واليوم . إعداد إدارة الشئون الإسلامية . مجلة الوعي الإسلامي ٨٨ — ٩٢ ع ٧١ ديسمبر ١٩٧٠م والمسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا ٢٢٢ .

٦) المسلمون والاستعمار الأوربي ٢٢٢ .

٧) انظر الطرق الصوفية في القارة الأفريقية د/ عبد الله عبد الرازق إبراهيم ٤٥ .

واستطاع هذا القائد بعد أن اعتنق مبادئ الطريقة الصالحية أن يكون خليفة لمؤسسها وأن يقوم بنشرها بين سكان الصومال بدرجة أصبحت تنافس فيها الطرق الصوفية الأخرى . وفي الوقت نفسه قاد هذا الزعيم الصومالي الجهاد لنشر الطريقة في مختلف ربوع الصومال . ثم مقاومة التوسع الإمبريالي المسيحي من جانب الأحباش والتوسع الأوربي من جانب البريطانيين والإيطاليين ... وظل هذا الشيخ يحمل السيف ويقود بلاده من نصر إلى نصر مدة عشرين عاماً أو تزيد حتى انتهى كفاحه البطولي في ١٩٢٠م [١] .

وقد ذكر بعض الباحثين أسباب قيام الشيخ محمد عبد الله حسن بالثورة ضد الإيطاليين والبريطانيين وكان أبرز هذه الأسباب هو الاستعمار وأفعاله الإجرامية [٢]. وكانت بدايتها على مشارف مدينة "بوعو" حيث وقعت معركة رهيبة بينه وبين الإنجليز ــ استشهد فيها ثلاثة من الطلاب "الداراويش" وقتل سبعة من الإنجليز وفر الباقون ونجا الملا ــ محمد حسن ــ إلى لاس عانود ودعا الناس إلى القتال والجهاد . وأخذ يدرب الشباب على فنون القتال وجعل حصن " تاليح " Talah مقراً له والتقى بهم في موقعة " بيرا " وكان النصر حليفه هو ومن معه من الداراويش فقد أرسل القائد الإنجليزي " كوفيل " رسالة للملا يقول له فيها " إهدم هذه المدينة "تاليح" وإلا هدمناها فوق رؤسكم . فكان جواب الملا عليه . لا أرد عليك حتى تصل إلينا . وسترى بعينيك الجواب . وبعد عامين وقعت المعركة ، وتمكن الدراويش بقيادة المجاهد المسلم من قتل القائد كوفيل ووقف القائد على رأسه وقال له يا أيها الكافر لقد توجهت إلى الآخرة . ومالك بقية من حياة . وأن رأيت جماعة لك في النار فقل لهم وقع الرصاص في فمي . ودخلت الرماح كتفي . وأذكر هناك قوتك وقوة بريطانيا معك [٣] وهذه الهزيمة جعلت الإنجليز يلقبونه بلقب The

---

١) انظر المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا د/ عبد الله عبد الرازق إبراهيم ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

٢) انظر المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا ٢٢٨ ، ٢٢٩ والإسلام وحركات التحرر العربية ١٢٩ .

٣) انظر الإسلام وحركات التحرر العربية د/ شوقي أبو خليل ١٣٠ ، ١٣١ والمسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

Mad Molah أي الشيخ المخبون [١] كما وصفوه بأنه مهدي الصومال تشبها بمهدي السودان [٢] وهذه الألفاظ صدرت من الغربيين وللأسف تابعهم فيها بعض الباحثين من العرب وكلها تقلل من قدر هذا المناضل الكبير الذي مرغ أنواب البريطانيين والإيطاليين في التراب وقاد بلاده من نصر إلى نصر . رغم الحملات [٣] المكثفة التي قامت بها بريطانيا للقضاء عليه وعلى أتباعه وأخيراً يصل إلى مدينة إيمي داخل أراضي الأوجادين . ويصاب بمرض أدى إلى وفاته ١٩٢٠م . بعد عمر دام ستة وخمسين عاماً قضى معظمها في الجهاد والكفاح ونشر العلم ووضح طريق الحرية والوحدة لأرض الصومال كلها [٤] .

وهكذا كان السيد بطلاً قومياً ومعلماً ربانياً وشيخاً لطريقة إصلاحية صوفية . ومجاهداً بالسيف والعلم . ومعلماً لمبادئ الطريقة الصالحية التي ضارعت ونافست أقوى الطرق في المنطقة المغربية ومصارعاً لقوى الشر والعدوان بشكل لم يسبق له مثيل في القارة الأفريقية [٥] .

ومما ينبغي ذكره في الصومال وقوع الصراع والتنافس بين الطرق الصوفية — القادرية بقيادة الشيخ عويس بن محمد البراوي — المولود في برادة ساحل الصومال الجنوبي عام ١٨٤٧م والصالحية بقيادة الشيخ محمد ابن عبد الله حسن القائد الصومالي المتقدم .

ويرجع هذا الصراع والتنافس إلى اختلاف في الأفكار والمبادئ والمناهج . فلكل طريقة فكرها ومبادئها ومناهجها . التي تخالف به الأخرى ، فالطريقة الصالحية — طريقة لها ميول سلفية مثل السنوسية . وهي تعارض بشدة فكرة زيارة القبور على أمل الحصول على الوساطة والبركات [٦] .

---

١) انظر تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم د/ شوقي الجمل وزميله ٣٩ .

٢) انظر المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا ٢٢٣ .

٣) السابق ٢٣٧ ، ٢٥٩ .

٤) انظر المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا ٢٦٢ والإسلام وحركات التحرير العربية ١٣١ ، ١٣٢ .

٥) المسلمون والاستعمار الأوربي لأفريقيا ٢٦٢ بتصرف .

٦) الطرق الصوفية في أفريقيا د/ عبد الله عبد الرازق إبراهيم ٤٥ .

وتعرض أتباع الطريقة القادرية إلى نقد مرير من خصومهم بسبب عادة الوساطة من خلال الشيوخ . وأعلنت الطريقة الصالحية أن زيارة القبور غير صحيحة من وجهة النظر الإسلامية وبسرعة هاجم الشيخ عويس الطريقة الصالحية زعيمها السيد محمد عبد الله حسن وأتباعه واعتبرهم من الشياطين واستمر الصراع بين الطريقتين تتهم كل منها الأخرى حتى انتهى بقيام فرقة من رجال الطريقة الصالحية بقتل الشيخ عويس في ١٤ إبريل ١٩٠٩م وكان ذلك في بيولي Biolay التي تبعد حوالي ١٥٠ ميلاً شمالي برادة [١] .

والمسألة المختلف فيها لا تؤدي إلى قتل أميراً . والقتل كما أرى سببه الجهل وعدم الفقه في الدين . وإذا وقع الجهل ارتفع العلم وحدث ما لا تحمد عقباه .

وأما ما كان الأمر فإن الذي لاشك فيه أن حركة محمد عبد الله حسن كانت خطوه هامة وخطيرة في تاريخ الصومال أدت في النهاية إلى قيام جمهورية الصومال المستقلة عام ١٩٦٠م [٢] .

٧. في موريتانيا :

ابتليت موريتانيا كما ابتليت غيرها من الدول الأفريقية بالاستعمار ـ الاستعمار الفرنسي ـ لقد بدأ التدخل الفرنسي فيها منذ عام ١٨٥٤م وذلك بإرسالها حملات كانت تنطلق من مستعمراتها "السنغال" وفي عام ١٩٠٢م غزا الفرنسيون موريتانيا [٣] وفي عام ١٩٠٣م أعلنوا الحماية عليها [٤]

وكعادة الإسلام قام للذود عن أرض الوطن . قام ليأخذ دوره الطبيعي في مكافحة الاستعمار فكانت المقاومة بزعامة الشيخ ماء العينين .

---

١) السابق ٤٥ .

٢) انظر تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم د/ شوقي الجمل وزميله ٣٩ .

٣) كانت تعرف قبل عام ١٨٩٩م ببلاد الشنقيط . وصاحبها من الشنقيطين انظر الأعلام للزركلي ج ٢٤٣/٧

٤) انظر الإسلام وحركات التحرير العربية د/ شوقي أبو خليل ٢٢٢ .

وماء العينين : هو مصطفى بن محمد فاضل بن محمد مأمين الشنقيطي القلقمي . أبو الأنوار الملقب بماء العينين من قبيلة القلاقمة من عرب شنقيط مولده ببلدة الحوض ١٨٣٠م ووفاته في تزنيت من مدن السوس الأقصى عام ١٩١٠م وفد علي ملوك المغرب في رحلته إلى الحج وحظي عندهم بمكانة عاليه . وكان مع اشتغاله بالحديث واللغة والسير له معرفة بما يسمى "علم خواص الأسماء والجداول والدوائر والأوقاف وسر الحروف وقصده الناس لهذا [١] فالرجل عالم . وله مؤلفات كثيرة منها المطبوع والمخطوط [٢] وله كتاب في التصوف سماه " مبصر المتشوف" [٣] وصاحب طريقة . والطريقة التي اعتنقها . الطريقة الفاضلة . وقد أسسها والده وهي فرع من القادرية [٤] وهي مسماه باسمه " محمد فاضل " .

وكان تصوف الرجل منهجاً وسلوكاً فقد جاء في مقال الشيخ الحاج أحمد معنينو " أن ماء العينين كان ملجأ للخائفين . وموردا للجائعين . ومنهجاً للتائبين العابدين . ورحمه للضعفاء والمساكين . وحد بين أبناء الأمة المسلمة وآخى بين افرادها . كما كان رحمه الله ذا أنفة إسلامية تمنعه من الانضواء إلى الأجانب . بل كان من أعدى أعدائهم بالصحراء .. ومن أهم أعماله جهاده . ورباطه جأشه في سبيل الله ضد العدو المحتل واستمراره في جهاده حتى القادرية [٥] فالشيخ كان قائداً روحياً قبل أن يكون زعيماً سياسياً ولا عجب في ذلك فهو شريف حسني [٦] كما يقول الزركلي فيه .

---

١) انظر الأعلام خير الدين الزركلي ج ٢٤٣/٧ .

٢) انظر الأعلام للزركلي ج ٢٤٣/٧ .

٣) المرجع السابق .

٤) انظر جهاد الممالك الإسلامية في غرب افريقية ضد الاستعمار الفرنسي ١٨٥٠ ــ ١٩١٤م د/ إلهام ذهني ٢٠٠ دار المريخ للنشر والتوزيع . الرياض ١٩٨٨م .

٥) انظر الإسلام وحركات التحرير العربية د/ شوقي أبو خليل ٢٢٣ وقد نقل ذلك من مجلة الاعتصام الرباط من ٤٨ ــ ٥٢ ع ٢ السنة ١ جمادي الثانية ١٣٩٥هــ ــ يونية ١٩٧٥م .

٦) الأعلام للزركلي ج ٢٤٤/٧ .

وللشيخ مواقف ووقائع في مقاومة المستعمر الفرنسي والأسباني في المغرب . وقد أسند الشعب المغربي له في الأيام الأخيرة من حياته قيادة الجهاد واجتمع لديه جيش من تلاميذه ومن رجال القبائل وسائر قبائل السوس . واستطاع أن يزحف نحو فاس لأنقاذها من أيدي المستعمرين . وواصل الشيخ وتلاميذه الجهاد . وأوقع بالفرنسيين خسارة عظيمة . واصطلوا بنار مستعرة في يوم مذكور " يوم تادلة " [١] ولم يستطع الفرنسيون أن ينالوا من جهاده إلا بعد أن حشدوا له قواهم .[٢] واستخدموا السلطان العلوي الضعيف " عبد الحفيظ في المغرب " الذي كان متعاونا معهم [٣] وأشد ما يكون على المجاهدين الشرفاء والمناضلين الأحرار أن يطعن من الداخل وممن يظن به المساعدة والمعاونة . وصدق الشاعر إذ يقول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة

على النفس من وقع الحسام المهند

ومع ذلك فقد وجد المستعمر صعوبة في اختراق موريتانيا والصحراء بفضل هذا الشيخ ومن معه من المجاهدين [٤] وظل الشيخ وفياً للجهاد والمجاهدين . مدافعاً عن بلاده حتى وافته المنية عام ١٩٢٠م ولم ينته الجهاد بموت الشيخ . وإنما حمل الراية من بعده وقاد الجهاد والمقاومة ابنه هبة الله [٥] الذي سار على دربه واتبع طريقته حتى نالت موريتانيا استقلالها فيما بعد .

---

١) انظر الأعلام للزركلي ج ٧/٢٤٤ هامش ١ .

٢) السابق ج ٧/٢٤٤ هامش ١ .

٣) انظر النشرة الماركسية العالمية لعام ٢٠٠٢م ماركس نضال الصحراويين . التاريخ والآفاق . w.w.w Marpy com

٤) انظر فقيه وشيخ صوفي يقاوم الاستعمار مجلة المعرفة الأربعاء ١٤٢٧/٤/١٩هـ ـــ الموافق ٢٠٠٦/٥/١٧م الجزيرة نت .

٥) الإسلام وحركات التحرير العربية د/ شوقي أبو خليل ٢٢٣ .

٨ـ السودان :

كانت السودان ومصر مستعمرتان من قبل الإنجليز فكان السودانيون يعانون من ظلم الخديوي توفيق الذي سيطر عليه الإنجليز وأصبح العوبة في أيديهم. بالإضافة إلى ظلم الإنجليز أنفسهم . فقد أصبحت الأرواح مهددة . والحريات مغتصبة والأملاك منتزعة والبلاد مخربة . وتجارة الرقيق منتشرة والرشاوي متفشية وتطلع الناس إلى من ينقذهم من هذا الظلم . فهيأ الله لهم هذا القائد الكبير محمد بن أحمد المهدي الذي قاد الجهاد وحرر البلاد .

ولد هذا القائد في رجب ١٢٦٠هـ ــ الموافق ١٨٤٣م في جزيرة لبيب قرب مدينة دنقلة من أسرة طيبة اشتهرت إنها حسينية النسب . تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وهو في الثانية عشرة من عمره . مات أبوه وهو صغير . وذهب إلى الخرطوم فقرأ الفقه والتفسير وتصوف [1] .

وقد ساعد على تصوفه . بيئة كثر فيها أبناء الطريق [2] . وميل إلى العزلة والخلوة للعبادة والتأمل . فقد انقطع في جزيرة أبا خمسة عشر عاماً للعبادة كما يقول الزركلي [3] واتصاله بمشايخ الطريق . فقد كان متصلاً في الجزيرة بالشيخ الأمين الصويلح ثم مضى إلى خلوة الشيخ الأمير . وارتحل بعدها إلى الفقيه العالم الشيخ محمد الخير في الغُبش تجاه البربر فطاب له المقام والاعتكاف على الدرس والتحصيل وبهرته دون اترابه أنوار التصوف فاقبل عليها [4] .

١) انظر الأعلام للزركلي ج ٢٠/٦ والإسلام في القرن العشرين عباس محمود العقاد . ضمن موسوعة عباس محمود العقاد ج ١٠٥/٥ المكتبة العصرية صيدا لبنان ط ١٤٢٧/١هـ ــ ٢٠٠٦م والإسلام وحركات التحرير العربية د/ شوقي أبو خليل ١٢٠ .

٢) الإسلام في القرن العشرين ج ١٠٥/٥ .

٣) انظر الأعلام لخير الدين الزركلي ج ٢٠/٦ .

٤) الإسلام وحركات التحرير ١٢٠ .

لزوم الطريقة : تتلمذ الشيخ محمد أحمد المهدي على الشيخ أحمد الطيب بن البشير السّماني الطريقة (١) والسّمانية فرع من الشاذلية (٢) ولزم شيخ الطريقة السّمانية حيناً من الدهر فعهد إليه شيخة نشر الطريقة في جزيرة أبا . فأقام فيها مسجداً وخلوة للتعليم والإرشاد وورد إليه الناس من مختلف الأقطار كان يتولى تعليمهم وإرشادهم (٣) .

كما التحق بالشيخ محمد شريف نور الدائم وهو سماني أيضاً ومكث في حلقة هذا الشيخ يدرس مبادئ الصوفية ويعي تعاليمها .. حتى منحه شيخة الأستاذية بعد دراسة امتدت إلى سبع سنوات (٤) وكثر بذلك أتباعه ومريدوه وصار وطنياً كما يقول الدكتور عبد الله عبد الرازق (٥) لدرجة أن شيخه محمد الشريف بدأ يحقد عليه ويحسده . وانقلب الحسد إلى عداء سافر عندما أخذ محمد أحمد ينتقد تصرفات شيخة الذي أذن للنساء بالحضور إلى مجلسه وتقبيل يده . وسمح بالرقص والطبل والغناء في احتفال كبير لختان أنجاله (٦) .

وبعد هذه القطيعة انتقل إلى شيخ آخر هو الشيخ القرشي ود الزين (٧) وقضى معه الفترة من عام ١٨٧٨م ــ حتى عام ١٨٨٠م . وهي من أحرج الفترات التاريخية في حياة السيد محمد أحمد لأنها كما تشهد روايات المؤرخين تمثل انتقال

---

١) السابق ١٢٠ .

٢) انظر نظرية المؤامرة أوهم أم حقيقة ؟ موقف صادق العطار ٣٤٠ .

٣) انظر الموسوعة الحركية الأستاذ فتحي يكن ج ٢٠٩/١ ، ٢١٠ دار البشير للنشر والتوزيع عمان ط ١ سنة ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م .

٤) انظر تاريخ السودان الحديث للأستاذ ضرار صالح ضرار ١٠٣ الدار السودانية للكتب الخرطوم ط ١٩٧٥/٣م .

٥) انظر الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ٨٦ .

٦) انظر تاريخ السودان الحديث ضرار صالح ضرار ١٠٥ والطرق الصوفية في القارة الأفريقية ٨٦ .

٧) انظر تاريخ السودان الحديث ١٠٥ ، ١٠٦ والطرق الصوفية في القارة الأفريقية ٨٦ ، ٨٧ والإسلام وحركات التحرير العربية ١٢٠ .

الرجل من الصوفية إلى المهدية [١] كما سيأتي . ولما مات الشيخ القرشي ١٨٨٠م أوصى له بالخلافة فبايعه الأحباب ووفد الناس عليه فهو إمام الوقف . وهامس الناس بأنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً [٢] وانتقل الأمر من الهمس إلى الإعلان الرسمي إنه هو المهدي المنتظر [٣] .

ومهدي السودان ليس هو المهدي المنتظر الذي وردت الأحاديث بظهوره في غاية الزمان [٤] واخذت دعوة الشيخ تأخذ طوراً جديداً ففي عام ١٨٨١م اجتمع في جزيرة أبا خلق كثير فقام المهدي بعد انتهاء الصلاة خطيباً في محبيه " وكان فطنا فصيحاً قوي الحجة إذا خطب خلب [٥] وتكلم في واقع الناس وأطال في الأسباب التي كانت مقدمة لتلك النتائج والأمور التي أفضت إلى ثورة عرابي وما أعقب ذلك من أحداث جسام في مصر فارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب . وكبر الحاضرون وهللوا ثم طلب من احبابه أن يقطعوه الميثاق والعهد فبايعوه على الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً وبه إماماً ومهدياً وعلى الزهد في الدنيا وتركها وعلى الجهاد في سبيل الله رغبة فيما عند الله [٦]

وتجمع للشيخ من دعوته وزياراته المختلفة في انحاء السودان عدد كبير من المحبين والمريدين ـــ الدراويش ـــ حتى زاد عددهم عن عشرين ألفاً [٧] هم أساس السودان ومنشوا دولته . وتحول الشيخ من مجرد صوفي ينشد الخلاص لنفسه إلى صوفي ينشد الخلاص للناس والمجتمع من براثن الحكم الأجنبي وظلمه .

---

١) الإسلام وحركات التحرير العربية ١٢٠ .
٢) الإسلام وحركات التحرير العربية ١٢٠ والموسوعة الحركية ج١/٢١٠ ، ٢١١ .
٣) انظر الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ٨٧ .
٤) انظر المهدي المنتظر بين المثبتين والمنكرين للباحث والمهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثية نقدية د/ عداب الحمش ٩٥ وما بعدها دار الفتح للنشر والتوزيع عمان ط ١٤٢٣/٢هـ ـــ ٢٠٠٣م والأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته د/ عبد الودود شلبي ط دار المعارف القاهرة عام ١٩٧٩م .
٥) الأعلام للزركلي ج ٦/٢٠ .
٦) الإسلام وحركات التحرير العربية ١٢٢ والأعلام للزركلي ج ٦/٢٠ هامش ١ والموسوعة الحركية لفتحي يكن ج ١/٢١٠ ، ٢١١ .
٧) انظر الإسلام في القرن العشرين ١٠٥ ، ١٠٦ والأعلام للزركلي ج ٦/٢٠

وبدأت مرحلة الجهاد وعزم الشيخ على مقاومة الإنجليز ومن معه من الدراويش . وأصدر فتواه المشهورة بإعلان الجهاد ضدهم وكان ذلك عام ١٨٨١م [١] واتبع ذلك بتعبئة الناس فحشد الحشود وجند الجنود . وأرسلت السلطات السودانية باخرتين بهما فصيلتان من المشاة ومثلهما من الفرسان للقضاء على المهدي وأتباعه من الدراويش . وما أن رست الباخرتان في ليلة الجمعة ١٦ رمضان عام ١٩٩١م حتى انقض عليهما أتباع المهدي وأنصاره وأبادوا من فيهما إلا قليلاً وارتدت الباخرتان هرباً إلى الخرطوم لتبلغا الحاكم العام نبأ الكارثة وتذيعا في الناس نبأ انتصار المهدي وأنصاره العزل على الجنود المدججين بالسلاح [٢] ثم أمر المهدي أتباعه بالهجرة إلى جبل ماسة بالقرب من جبل قدير في جبال النوبة بكردفان . فحقق نصره الثاني في معركة راشد أيمن . أحد الأتراك الذين أرادوا القضاء على المهدي في كانون الأول من ديسمبر عام ١٨٨١م ثم سقطت الأبيض في ١٩ كانون الثاني " يناير " ١٨٨٢م فكان لهذه الهزائم صدى مدوياً في لندن والقاهرة والخرطوم [٣] فعزمت انجلترا على أن ترسل حملة كبيرة بقيادة الكولونيل وليم هكس **Hicks** وقبل ان يلتقي به المهدي كتب إليه يدعوه وجنده إلى الدخول في طاعته والإيمان بدعوته . ولكنه أبى ذلك بصلف وغرور [٤] .

فلم يجد المهدي بدأ من لقائه والتقى الجيشان في معركة شيكان . وبذكاء منه استطاع أن يستدرج هكس وقواته إلى الوادي . ثم انقض أتباع المهدي — الدراويش — على هكس وجيشه . فأبادوهم ولم ينج منهم إلا القليل وقتل هكس

---

١) انظر الموسوعة الحركية لفتحي يكن ج ١٤٩/٢ .

٢) انظر الإسلام وحركات التحرير العربية ١٢٢ ، ١٢٣ والموسوعة الحركية لفتحي يكن ج ١٥١/٢، ١٥٢ .

٣) انظر الإسلام وحركات التحرير العربية ١٢٣ والطرق الصوفية في القارة الأفريقية ٩٦ — ١٠٠.

٤) كيف يدخل في طاعته ويؤمن بدعوته . وهو الإنجليزي والقائد المشهور الذي قال " لو سقطت السماء لتلقفنا بالسنفلي ولو مادت الأرض لثبتها بقوائم السيف وأرجل الخيل . هل رأيت غروراً وصلفاً أكبر من هذا ؟

وكبار ضباطه [١] حتى قال أحد الباحثين " لم ينج من جيش هكس سوى ٣٠٠ رجل [٢] وقدرت خسائر المهدي بما لا يزيد عن ٥٠٠ قتيل [٣]

وكان من آثار هزيمة شيكان أن قامت الحكومة البريطانية بإعلان عجز مصر عن إخماد الثورة المهدية . وبدأت تنتهج سياسات جديدة بإخلاء السودان وسحب الحاميات المصرية منها . ولتنفيذ سياسة الإخلاء كلفت بريطانيا الجنرال غوردون " نابغ ثورة تايبيج في الصين " للقيام بهذه المهمة . وفي الحال بعث إلى المهدي بكتاب يبدي فيه استعداده للاعتراف به سلطاناً على كردفان . وكان رد المهدي عليه هدية عبارة عن ثياب الدراويش والأنصار ــ جبة وسروال .. وحذاء وعمامة . ودعاه إلى الدخول في الإسلام . فتضايق غوردون من رسائل المهدي وطلب منه إلا يكتب إليه مرة ثانية [٤] وعزم المهدي على مهاجمة الخرطوم والاستيلاء عليها وبعد حصار وقتال عنيف استطاع المهدي ومن معه من الدراويش أن يقتحموا أسوار المدينة وسقطت في يده عام ١٨٨٥م وعندما شاهد غوردون ذلك أسرع إلى سطح قصره بملابس نومه ورأى النوافذ قد أغلقت وأنه سقط في أيدي أعدائه . وعندئذ تقدم أربع رجال إلى مكان غوردون في قصره . وكان أولهم طه شاهين الذي قذفه بحربة في جسده .. وأما الرجال الثلاثة فقد تدافعوا نحو جسده وقطعوه إرباً . وقطعوا رأسه وأرسلوها إلى المهدي في أم درمان . وعلقت رأسه هناك على أحد فروع الأشجار ... وكان المهدي لا يرغب في قتل غوردون بل كان يود أسره حياً ليتقذ به أحمد عرابي [٥]

---

١) انظر الإسلام وحركات التحرير ١٢٣ .

٢) الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ١٠١ .

٣) السابق ١٠١ .

٤) انظر أعلام الإسلام . مهدي الله . الأستاذ توفيق أحمد البكري ٨٩ لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٤م والحركة المهدية بين الثائر والثائر د/ صالح أحمد المسلوت ٥٣ دار الأندلس طنطا ط ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م والإسلام وحركات التحرر ١٢٤ .

٥) انظر الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ١٠٦ باختصار وتصرف والإسلام وحركات التحرير العربية ١٢٥ والأعلام للزركلي ج ٢٠/٦ .

وقد أكد السيرونستون تشرشل هذه الأحداث . فوافق بذلك الباحثين العرب المسلمين يقول " هجموا عليه ـــ أي الدراويش ـــ ولم يحاول حق استعمال مسدسه ـــ وأمالوا عليه طعناً في أجزاء مختلفة في جسمه وقع على درجات السلم . هنالك أجهزوا عليه فقطعوا الرأس وحملوها للمهدي وأعملوا في باقي الجثة حتى لم يبق منه شيء إلا أكوام لحم وخرق ممزقة مليئة بالدم [١]

وانتقل المهدي وحكومته إلى الخرطوم بعد أن خضعت السودان له . وبذلك حرر هذا المجاهد بلاده من رجز الكفار والمستعمرين [٢] يقول الأستاذ ضرار " ولم يحدث في كل عصور تاريخ السودان أن توحدت البلاد بأسرها تحت زعامة وطنية كما حدث في عهد المهدي . فهو الذي أعطى البلاد وحدة دينية ووطنية . وأزال الفوارق الطائفية الدينية . والنعرة القبلية وفي ذلك التاريخ برز السودان كقطر قوي أصبح قبلة المسلمين في جميع بلادهم .. وإن قل الإيمان بالمهدي في القرن العشرين كمهدي جاء لنصرة الدين . فإن مكانته القومية وزعامته الوطنية مازالت سامية في نفوس السودانيين جميعاً [٣] .

ويصاب المهدي بمرض شديد ـــ هو التيفوس ظل يعاني منه فترة حتى لقي ربه وهو ابن اثنين وأربعين سنة عام ١٨٨٥م بعد أن عين التعايشي [٤] خليفة له .

وهذا الخليفة كان صوفياً هو الآخر . على الطريقة السمانية . وقد تغيرت الأوضاع في عهده فتآلت عليه قوى الشر من الداخل والخارج ـــ الثورات

---

١) انظر تاريخ الثورة المهدية والاحتلال البريطاني للسودان ـــ سيرونستون تشرشل ترجمة عز الدين محمود دار الشروق القاهرة ط ١ سنة ١٤٢٧هـ ـــ ٢٠٠٧م .

٢) الموسوعة الحركية فتحي يكن ج ٢/١٥٠ .

٣) انظر تاريخ السودان الحديث ضرار صالح ضرار ١٦٤ ، ١٦٥ .

٤) التعايشي : هو عبد الله بن محمد التعايش . من قبيلة التعايشة . ولد في بادية المغرب الجنوبي من دارفور عام ١٢٦٦هـ ـــ ١٣١٧هـ ـــ ١٨٥٠ ـــ ١٨٩٩م اتصل بالمهدي فكان من أنصاره . وكان درويشاً مثله . سار على دربه في الجهاد . قتل هو وجماعة من أصحابه على يد كتشنر القائد الإنجليزي في السودان . انظر ترجمته في الأعلام ج ٤/١٣٣ .

العشائرية والأحباش والبريطانيون والإيطاليون والبلجيكيون . وكانت بريطانيا أقوى هذه الدول . وأرادت أن تثأر لقتلاها وأن تستعيد هيبتها ومكانتها في السودان فجهزت جيشاً كبيراً وأسندت قيادته إلى كتشنر . وكان مكوناً من ٢٥ ألف رجل مشاه وعدد حربية حديثة .. واستطاع هذا الجيش أن تضرب المجاهدين السودانيين برصاص المدافع الرشاشة حتى حصدهم .

ولما رأى التعايشي وأصحابه أنهم قد خسروا المعركة افترشوا فراء الصلاة وجلسوا هادئين ينتظرون الموت بجنان ثابت كما هي عادة الزعماء السودانيين عندما يخسرون المعركة الفاصلة فلا يولون الأدبار . ولم يبق من أتباع التعايشي إلا الشيخ عثمان بن دقنه [1] الذي رفض الاستسلام والتوقف عن الجهاد فأخذته السلطات البريطانية وأودعته السجن وظل في سجن حلفا حتى توفي في ٨ كانون الأول ديسمبر ١٩٢٦م [2]

ومن أعمال كتشنر البربرية وضعه الألغام في ضريح المهدي . فهدم القبة ولم يبق من الضريح سوى حيطانه القائمة . ثم أمر بنبش القبر واستخراج الجثة وقطع رأسها ثم أرسلها إلى المتحف بلندن ، بعد أن تبعثر العظام . ولم تعرف البلاد مثل هذه البربرية إلا في عهد كتشنر عند استيلائه على السودان إذ يرجع بالعالم إلى عهود تعرفه في البداية [3]

---

١) عثمان دقنة : هو عثمان بن دقنه بن أبي بكر من أمراء الدراويش في السودان ولد عام ١٨٣٧م نشأ وتعلم في سواكن وتعاطى التجارة واتسعت ثروته . ولما قامت ثورة المهدي رحل إليه وبايعه فولاه السودان الشرقي ولما مات المهدي والى خليفته التعايشي وانضم إليه وقاوم الجيوش المصرية والبريطانية فظفر وأسر الكثير واستمر في دفاعه وجهاده = (=) حتى خانه أحد أقربائه فأسلمه إلى أعدائه ١٩٠٠م فحمل أسيراً إلى دمياط ثم إلى وادي حلفا حيث مات في سجنه عام ١٩٢٦م انظر الإعلام ج ٢٠٥/٤ .

٢) انظر تاريخ السودان الحديث ضرار صالح ضرار ١٣٦ ــ ١٤٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ والإسلام وحركات التحرير العربية ١٢٦ ، ١٢٧ .

٣) انظر الإسلام وحركات التحرير العربية ١٢٧ .

والخلاصة أن الشيخ محمد أحمد المهدي فجر أكبر ثورة إسلامية في القرن الثالث عشر ــ التاسع عشر الميلادي . وأنشأ حركة مقاومة إسلامية أرعبت الدول الاستعمارية . واستطاع هذا الزعيم الصوفي استقلال الطرق الصوفية وقبائل السودان المختلفة لتقف صفاً واحداً هو القضاء على الاستعمار وأعوانه . وأقام مجتمعاً متكاملاً اتخذ من الشريعة الإسلامية منهجاً له في الحياة حتى توفي ــ وولي بعده التعايشي ــ الذي أرسى الدولة المهدية على أسس ثابتة حتى أواخر القرن التاسع عشر [١] .

وبعد فإن هذه النماذج المنتخبة من نماذج كثيرة لو ذكرناها لطال بنا المقام وخروج البحث عن إطاره ــ ترينا أمراً حقيقياً واقعاً ــ لا وهما خيالياً

إن التصوف ليس خجولاً ولا إنهزاماً كما ادعى البعض ــ كما أنه ليس تواكلاً وهواناً كما يراه البعض الآخر إن التصوف قوة وبأس . وجهاد ونضال . ونفس ملهمة عاملة ــ إنه تصعيد بالحياة إلى أعلى ارتفاع بالقيم الإنسانية إلى ما هو ارفع واسمى [٢] .

والصوفية التي قدمناها في هذه النماذج هي صوفية تطبيقية أخرجت التصوف من إطاره النظري إلى إطاره العملي . وطبقت آيات وأحاديث الجهاد تطبيقاً عملياً تمثل في مقاومتها للمستعمر والغازي . الذي احتل أرضها واستولى على خيراتها واستعبد أبناءها وجعلهم إذلاء خاضعين .

وقد استطاعت الطرق الصوفية بما لها من مكانة ومنزلة في قلوب الكثير من الناس أن تجند الجنود وتجيش الجيوش فقاموا بثورات في مختلف البلاد من القارة الأفريقية .

وسجلوا بأحرف من نور بطولات وتضحيات لا ينساها التاريخ على مر العصور والدهور وعلى الذين ينكرون هذا الدور البطولي أن يراجعوا كتب التراث

---

١) الطرق الصوفية في القارة الإفريقية ١١٠ ، ١١١ باختصار وتصرف .

٢) انظر الإطار الدفاعي عند الصوفية الأستاذ اسعد الخطيب ١٠١ .

ويقرأوها بإنصاف وتجرد ويشهدوا بالحق والحقيقة فإن الله سائلهم عنها وقد قال الله تعالى " وإذا قلتم فاعدلوا " [١] وقال " ولا يجر منكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى " [٢] .

كما أن هذه النماذج فضحت الدول الأوربية وكشفت عن أطماعها التي لا تنتهي واستغلالها الذي لا يقف عند حد ـــ إن الاستعمار هو الوجه الحقيقي لهذه الدول مهما حاولت تجميله بصور شكلية وتزينه بأمور وهمية لإخفاء حقيقته فإن التاريخ لا ينسى ما فعلوه بالإسلام والمسلمين في العصر الحديث .

ولكن هل كانت الطرق الصوفية كلها على هذا النحو من الجهاد والمقاومة ؟

ونأسف أن نقول لا . لم تكن الطرق الصوفية كلها على هذا النهج من المجاهدة والمقاومة للمستعمر ـــ فهناك من عاون المستعمر وسانده وسار في ركابه ـــ بل وصاهره . وسواء أكانت هذه الفرق كثيرة أم قليلة فإنها تسجل إنحرافاً في السيرة وميلاً في المسيرة وهذا ما نحاول إبرازه في المبحث القادم إن شاء الله ـــ .

١) الأنعام آية ١٥٢ .

٢) المائدة آية ٨ .

المبحث الثالث

" الطرق الصوفية المعاونة "

من الأمور البديهية أن من لم يجاهد ويقاوم المستعمر من الطرفين فلابد أن يعاونهم ويساعدهم لأن القضية لا تحتمل إلا أمرين ـ إما المجاهدة وإما المعاونة ـ فمن كان مجاهدا لا يكون معاوناً ، ومن كان معاوناً لا يكون مجاهداً .

والمعاونة ليست مقصورة على تعطيل شرعية الجهاد فقط . بل السكوت عن المستعمر وعدم الاعتراض عليه والرضا بأفعاله وهذا لا يقل في نظري عن المعاونة المباشرة .

وثبوت المعاونة يعني تحول المسار وتغيره عند بعض الطرقية وهو أمر في غاية الخطورة بحجج ظنوا أنها شرعية ـ جهلاً بأحكام الشرع والدين وطمعاً في الوجاهة والمكانة والمال . حتى وصل الأمر إلى العمالة والتجسس كما سيأتي :

والدول الاستعمارية تدرس نفسية الشعوب قبل استعمارها وتقوم بعملية مسح شبه كاملة للبلاد التي يراد استعمارها والتركيز على من يؤثر في الناس ويتأثرون به . وخاصة الطرقية ـ من حيث عدد أتباعهم . وأصنافهم الاجتماعية وعدد زواياهم ووظائف هذه الزوايا ـ ومهامها ـ وخاصة وزنها الاقتصادي والاجتماعي وميولاتها . وانتماءاتها السياسية [١]وهذا ما فعلوه بالقارة الأفريقية يقول أحد المختصين بشئون الطرق في شمال أفريقيا " بول اديتو "إن شيوخ الطرق يميلون إلى المال والنفوذ ـ وهم يعرفون أنهم إن قاوموا الدول الحامية فإنهم لن يحصلوا علـــــى أي منهما [٢] .

---

١) انظر الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية التليلي العجيلي ٧٩ ، ٨٠ .

٢) انظر تاريخ المغرب في القرن العشرين روم لاندو ١٤٠ ترجمة نقولا زيادة ومراجعة د/ أنيس فريحة نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بيروت نيويورك ١٩٦٣م .

ويقول جوليان مثنياً على الحكومة الفرنسية " لقد عرفت الحكومة الفرنسية كيف تجمع المتصوفة الذين مولتهم وحتهم " [١] وكان الفرنسيون من أوائل الدول الاستعمارية التي اهتمت بالطرق الصوفية ـــ لأغراضها ومن أول المتسائلين حول موقعها في المجتمع [٢]

وهذه هي السياسة التي تتبعها أمريكا اليوم فقد رأت ان افضل وسيلة لمحاربة الصحوة الإسلامية ـــ ومقاومة الإسلام الأصولي كما تزعم ـــ هو التصوف والطرق الصوفية [٣] .

والمستعمر حريص على مصلحته أينما كانت ويستخدم كل الحيل في الوصول إليها . وقد رأى أن الطرق الصوفية خير وسيلة تحقق له ذلك . وبهذا يضرب على وتيرة التسليم والرضا والإيجاب بالقضاء والقدر التي يعتقدها الطرقيون ويدينون بها . وأدرك ضرورة توظيف هذه الأفكار في مشروعه الاستيطاني كما هو الحال مع أعضاء جمعية العلماء المسلمين حتى أطلقوا عليهم استهجاناً " الباديسين " [٤]

لقد مدت الإدارة الاستعمارية كل العون والتقدير للطرقيين وشدت على أيديهم فكانت تشاركهم في تحقيق الأمن والسلامة لزوار مريدي الأضرحة سنوياً . وكان المتنقلون بالقطارات إلى هذه المزارات لا يدفعوه إلا نصف التسعيرة دعماً من المستعمر .

---

١) السابق ١٤٣ وانظر كذلك التيجانية د/ علي آل دخيل الله ٩٠ دار العاصمة ـــ السعودية ط ١٤١٩/٢هـ ـــ ١٩٩٨م .

٢) انظر الإسلام الطرقي د/ لطيفة الأخضر ٣٨ .

٣) انظر سفير امريكا يطبق توصيات سيريل بنارد الأستاذ احمد عز العرب جريدة الوفد مقال على شبكة الإنترنت .

http . II . also wfla org . . ٢٨ ومنتديات الصوفية httpill . w . w . w oluofd org

٤) الباديسيين : نسبة إلى باعث النهضة الحديثة في الجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله .

يقول المؤرخ الفرنسي إميل دارمنجم ت ١٩٤٥ Emile Dermong hom إن ضريح الولي سيدي عابد [1] كان يزوره سنوياً من ٨٠ ــ ١٠٠ ألف زائر من الجزائر العاصمة ووهران ومناطق أخرى . ويتم الاحتفال تحت حراسة الدرك والأمن الفرنسيين المجندين خصيصاً لهذه الوفدات [2]

وفرنسا لا تفعل ذلك حباً في الجزائريين والطرقيين وإنما تفعل ذلك لأنه في مصلحتها إذ أن شيوع الفكر الطرقي القائم على التسليم والمسالمة من شأنه أن يثبت أرتادها ويقوى أركانها . فالاستعمار كما يرى أصحاب الطرق الصوفية قدر الله ومن عند الله ــ وإذا كان من عند الله فمقاومته حرام [3] ومن ثم عطلت نصوص الجهاد التي تأمر بقتال المستعمر ومقاومته .

ومما ينبغي تسجيله هنا أننا نجد الطريقة الواحدة في ذاتها لها دور المقاومة في مكان ودور المعاونة في مكان آخر . وما ذلك إلا بتأثير رجال الطريقة القائمين عليها في المكان ذاته . فمثلاً الطريقة التيجانية اتخذت طريق المعاونة مع المستعمر الفرنسي في الجزائر وغيرها .

بينما اتخذت دور المقاومة مع نفس المستعمر في السودان الغربي "السنغال" وما حولها بقيادة الشيخ الأزهري عمر فوتي [4] وعد ذلك صاحب حاضر العالم ذلك

---

١) تأمل مدى اهتمام الفرنسيين بهذه الأضرحة وحراستها بقواتها الخاصة . هل تفعل ذلك حباً في الجزائريين وأصحاب الأضرحة أم لمصلحتها .

٢) انظر قصة الصراع بين التدين الخرافي والإسلام النقي مقال على شبكة الإنترنت منتديات المهدي :
HttpiH w w w alns hdy net

٣) انظر الصوفية الوجه الآخر د/ محمد جميل غازي ١٠٧ إعداد عبد المنعم الجداوي د/ت .

٤) هو عمر بن سعيد بن عثمان الفوتي السنغالي الأزهري التيجاني ولد سنة ١٧٩٧م في قرية الفار من بلاد ديمار ــ حفظ اللاقرآن على يد والده ــ وتتلمذ على يد بعض مشايخ الأزهر كالشيخ محمد العروسي والشيخ حسن العطار وله مؤلفات أهمها رماح حزب الرحيم على نحو حزب الرجيم . وسيوف السعيد . وسفينة السعادة توفى عام ١٨٦٤م انظر ترجمته في التيجانية د/ علي بن محمد فضل الله ٧٤ .

من الغرائب فقال " ومن الغريب أنها في الجزائر تنصح بالموالاة للفرنسيس وفي السودان ترفع راية الجهاد " [١]

كما أن البلد الواحد يوجد فيه التياران ـــ تيار المقاومة ـــ وتيار المعاونة ـــ فمعظم البلاد التي ذكرناها في المقاومة ـــ هي التي سنذكرها في المعاونة ـــ ومعنى ذلك أن جمهور الناس في هذه البلاد يتأثرون بالطرقية قوة وضعفاً وإيجاباً وسلباً ـــ كما يعطي ذلك مؤشراً على مدى اعتقادهم وثقافتهم وتمسكهم بها في الحالتين .

والمقصود بذلك أننا لا نعمم الحكم فلا نطلقه على جميع الطرقية في العصر الحديث . فالتعميم لا يصح في الأحكام ولا يصلح في الأبحاث . ولذلك سنذكر الطريقة في كل بلد على حدة مستقلة بذاتها لإبراز موقفها إنصافاً للحق وإظهاراً للحقيقة .

١ . في مصر :

الطريقة الغنيمية الخلوتية في مصر تنسب إلى الشيخ محمد الغنيمي التفتازاني ت ١٨٩٣ ـــ ١٩٣٦م [٢] وهذه الطريقة لها صلة ببريطانيا منذ تأسيسها يقول أحد الباحثين " إن هذه الطريقة أسستها بريطانيا من أجل محمد الغنيمي التفتازاني ـــ والذي يعد من أكبر أعوان بريطانيا .لذا أنعمت عليه وأصبح شيخاً لهذه الطريقة ومدافعاً ومحامياً لمصالح بريطانيا [٣]

وشيخ الطريقة البكرية ونقيب الأشراف السيد خليل البكري [٤] ت ١٢٢٣هـ كان من المتعاونين مع الفرنسيين أثناء احتلالهم لمصر سنة ١٧٩٨م

---

١) حاضر العالم الإسلامي ج ٤٦/٣ والتيجانية ٧٠ .

٢) انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج ٣٢٥/٦ والصوفي المجدد الشيخ محمد الغنيمي التفتازاني مقال على شبكة الإنترنت منتديات الغرب http . w . w . w alghbarib net

٣) انظر السيد البدوي محمود أبو رية ١٩٦ ، ١٩٧ مطبعة الإمام ـــ مصر ـــ والطرق الصوفية د/عبد الله السهلي ١٧٠ دار كنوز أشبيليا الرياض ط ١ سنة ١٤٢٦هـ ـــ ٢٠٠٥م

٤) انظر الطرق الصوفية د/ عبد الله السهلي ١٧٠ .

وكذلك مع البريطانيين . يقول فريد دي يونج عن خليل البكري هذا " فقام الفرنسيون بتعيين خليل في هذا المنصب " شيخ السجادة البكرية" الذي كان يشغله من قبل أعضاء من الأسرة البكرية . بل رعينه الفرنسيون عضواً في ديوان القاهرة ــ الذي أنشأه الفرنسيون ــ فتعاون بإخلاص مع الغزاة طوال فترة الاحتلال الفرنسي [1] تأمل قوله متعاون معهم بإخلاص يعني أصبح موالياً في كل شيء طوال فترة احتلالهم .

وينتهي الاحتلال الفرنسي ليحل محله الاحتلال البريطاني ويحرص الإنجليز على إقامة علاقة مع عائلة البكري فيأخذون ــ محمد توفيق البكري إلى بريطانيا ليربي على أعينهم وينشأ على مبادئهم ليعود مستكملاً أداة الرعاية الإنجليزية . وكان هو والخديوي عباس قد تعلما في معهد واحد في بريطانيا . وبعده أخذوا مراد البكري به عبد الحميد البكري وطبعوه على غرارهم وزوجوه من بناتهم ثم أعادوه ليتولى مشيخة الطرق الصوفية بمصر وظل بها إلى سنة ١٩٤٧م [2] .

ويذكر يونج أن الشيخ محمد توفيق البكري نقيب الأشراف أيضاً كان متواطئاً مع اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر ــ وهو أحد الشخصيات المتمتعة بحماية كرومر [3] .

وتتحسن العلاقة بين الشيخ البكري وخديوي مصر عباس حلمي . ويطالب الأول بقيام حكومة برلمانية ويوجه خطاباً مفتوحاً لأمير ويلز " جورج الخامس " وقد أثار ذلك الخطاب كثيرا من القلاقل والهياج والإثارة ــ وأصبح مكروهاً من الإنجليز وخاصة بعد أن ساهم أيضاً في الأنشطة الرامية إلى تدعيم حركة الجامعة الإسلامية الشاملة "

---

١) انظر تاريخ الطرق الصوفية في مصر في القرن التاسع عشر فريد دي يونج ٩ ترجمة عبد الحميد فهمي الجمال ط الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٥٠ م .

٢) انظر السيد البدوي محمود أبو رية ١٩٦ ، ١٩٧ .

٣) الطرق الصوفية في مصر فريد دي يونج ١٨١ .

(1) Pan es lamia mave ment

وبما ينبغي ملاحظته وتسجيله هنا تباين موقف الشيخ محمد توفيق البكري . فهو في المبحث السابق من المقاومين . وفي هذا المبحث من المعاونين فكيف ذلك ؟ حاول البعض ان يعالج هذا التباين لفسره بنار السياسة التي تحرق من يقترب منها . وقد كان بين الشيخ البكري وخديوي مصر إحن ومحن . وأراد الخديوي ان يتخلص من البكري فرماه بالجنون . كما هو شان الساسة فيمن يعارضهم . ونقل الشيخ البكري على اثر ذلك إلى مصحة نفسية في بيروت عام ١٢٣٠هـ ــ وبقى ١٦ عاماً . ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بعد عامين بعد نصح الأدباء فيها وتظاهر الناس [2] وهذا التفسير وإن أشار إلى حقيقة مهمة وهي مرض البكري النفسي إلا أنه غير معقول لأن الفترة المذكورة كانت في أخريات حياته بدليل أنه عاد إلى القاهرة وعاش عامين ثم مات وحديثنا عن الفترة المتقدمة من حياته والتي هي محل المقاومة أو المعاونة .

وربما كان التفسير المعقول لمواقف الرجل المتباينة ــ أن الرجل كان يقاوم الإنجليز وهذا امر طبيعي كشان اي مسلم استبيحت دياره واحتلت بلاده من قبل الإنجليز أو غيرهم . فإذا أضيف إلى ذلك مطالبة البكري بالاستقلال ودعوته إلى قيام حكومة برلمانية [3] وتمسكه بموضوع الجامعة الإسلامية فكرياً وعملياً [4] علمنا سر المقاومة .

ثم تحدث خلافات وتوتر للعلاقات بينه وبين الخديوي بسبب طلب البكري تخصيص مبلغ من ميزانية الدولة سنوياً لصالح الأزهر كمساهمة في رواتب المدرسين

---

١) الطرق الصوفية في مصر فريد دي يونج ١٨١ ، ١٨٢ .

٢) الأعلام للزركلي ج ٦٥/٦ ، ٦٦ والإسلام وحركات التحرير العربية ٣٨ ومشاهير ومجاهيل .

eo len an lue اون لا

٣) الطرق الصوفية في مصر ١٨٢ .

٤) الإسلام وحركات التحرير العربية ٣٧ .

بالأزهر [١] ومعارضة للخديوي في اتصاله بالباب العالي .لأن هذا في نظره يناهض القومية المصرية التي يتبناها ويرعاها [٢] وطعنه في الذات الملكية أكثر من مرة [٣] وهنا يتدخل اللورد كرومر ويدافع عن الشيخ البكري كشخصية دينية لها مكانتها . وله مآربه الشخصية من وراء هذا الدفاع . فيتعاون معه البكري — وهنا تحدث المعاونة — فكان المعاونة كانت رد فعل نكاية في الخديوي — يقول فريد دي يونج " وربما كان تدخل كرومر لحماية شخصيته دينية كبيرة مثل البكري ناجماً عن أن البكري كان ينشر المشاعر المناهضة للخديوي وكان هذا الإجراء يدعم مركزه في صراع السلطة بينه وبين الخديوي .

وبالنسبة لمحمد توفيق البكري نجد أن تدخل كرومر لصالحه كان يضعه في موقف غير مريح على أساس أنه إحدى الشخصيات المتمتعة بحماية كرومر وهو أمر غير مرغوب فيه في ضوء الروح الوطنية القومية التي يتمسك بها [٤] .

ثم تتحسن العلاقة بينه وبين الخديوي — رفيق دراسته وصديق عمره فيشاركه في سياسته الرامية إلى تحقيق الحرية من السيادة البريطانية — ويكافئه الخديوي على ذلك فيعينه نقيباً للأشراف خلفاً للشيخ على البيلاوي الذي انتقل إلى مشيخة الأزهر عام ١٩٠٣م . وهكذا كانت السياسة هي الدافع الأول والمحرك الأساسي للمقاومة والمعاونة عند الشيخ البكري وفي النهاية محسوب على الطريقة الصوفية باعتباره شيخا المشايخ الطرق الصوفية ونقيباً للسادة الأشراف [٥]

وفي سنة ١٩١٩م قام بعض شيوخ الطرق الصوفية في مصر منهم شيخ الطريقة السمّانية بجمع توقيعات تطالب ببقاء الإنجليز [٦]

---

١) الطرق الصوفية في مصر ١٨ .

٢) السابق ١٨١ .

٣) السابق ١٨١ .

٤) السابق ١٨١ .

٥) الإسلام وحركات التحرير العربية ٣٦ .

٦) انظر أصول التصوف عبد الله رزوق ٨٨ ، ٨٩ مكتبة الزهراء القاهرة ط ١٤١٨/١هـ والطرق الصوفية في مصر بين السامية والسياسة د: زكريا بيومي ٣١ دار الهجرة القاهرة ط ١٤١٢/١هـ .

ويجب أن لا ننسى الصلة الوثيقة والعلاقة الحميمة التي كانت بين الجنرال ماكفرسون وهو من أصحاب المناصب الحكومية الرفيعة في فترة الاحتلال البريطاني بمصر وبين رجال الطرق الصوفية وأهمهم الشيخ أحمد مراد البكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية . وقد أهداه ماكفرسون دراسته عن الموالد في عام ١٩٤١م (١)

٣ - في تونس :

استغل الاستعمار في تونس الطرق الصوفية استغلالاً سيئاً لصالحه وكانت سياسته التي اعتمد عليها هي سياسة الاستيعاب والاحتواء والإغراء تارة بالمال وتارة بالمنصب وتارة بالنساء عن طريق المصاهرة وتارة أخرى بالاعفاءات من الجبايات والتسهيلات في المهمات .

ففي سنة ١٩٠٣م توجه سيدي قدور أحد مشايخ الطرق القادرية إلى الوزير الفرنسي "روا " بطلب في إعفاء أحفاده الاثنين محمد وأحمد المرزوقي من الجبي . وما كان من روا إلا أن لبى طلبه . وفي إبريل ١٨٩٨م طلب نفس الشيخ أن يعفى الحطب والتبن والعشب الموجه إلى زاويته من الجباية . وكان له ذلك إضافة إلى أنه أعفي ابتداء من سنة ١٩٠١م من ضريبة السخرية . وأكثر من كل هذا . لم يبخل عليه روا بالأموال فوجه له حوالتين . الأولى مقدارها ٨٠٠ فرنك والثانية ٥٠٠ فرنك كإعانة لزاويته (٢) .

أما الزاوية التيجانية بتماسين فقد خصها روا بمقدار ٣٠٠ فرنك كتعويض عن ضريبة القانون التي تدفعها الزاوية سنوياً عن نخيلها بمنطقة الجريد التونسي . وهذا النوع من الاعفاء الجبائي له كل مبرراته . إضافة إلى القانون الصادر بتاريخ ٢٤ جانفي ١٨٩٣م ، ٢٠ جويلية ١٨٩٦م والذي يعفي شيوخ الطرق من الخدمة

---

١) انظر مقال الأستاذ جمال بدوي ــ مصر القديمة ــ الموالد من الفرعونية إلى المسيحية والإسلام ــ جريدة الأخبار ــ الأربعاء ٢٠٠٧/٤/٤م ع ١٧١٤٦ لسنة ٥٥ .

٢) انظر الإسلام الطرقي د/ لطيفة الأخضر ٩٤ .

العسكرية (١) فهل يستطيع الطرقي بعد هذه الأموال والإعفاء من الخدمة العسكرية أن يجاهد الفرنسيين ويقاومهم ؟ كيف وقد أعفي من الخدمة العسكرية ؟

وبلغ من سياسة الفرنسيين لاحتواء الطرق الصوفية . أن راهنت على المسماة عائشة أخت الشيخ محمد ظافر المدني ـــ مؤسس الطريقة المدنية .. وصاحب الحظوة لدي السلطان العثماني عبد الحميد وأم شيخ زاوية المدينة بمدينة صفاقس بأن منحتها ١٥ ألف فرنك بعنوان " جبراً للأضرار التي لحقت منزلها أثناء قصف القوات الفرنسية للمدينة سنة ١٨٨١م (٢)

كل ذلك تبعاً للاعتبارات السياسية التي قدرت كسب العائلة لما لأختها عائشة من علاقة مع السلطات العثمانية . وما قد تقوم به من تسهيل استقرار فرنسا بتونس .. خاصة وإن عائشة المذكورة كانت قد وعدت بعد تسليمها ذلك المبلغ . بتسخير كل جنودها ونفوذ عائلتها في خدمة فرنسا . على حد قول المصادر الفرنسية (٣) .

كما أعفت السلطات الفرنسية الشيخ محمد بن عبد الله ابن عائشة المذكورة وشيخ زاوية المدينة بصفاقس من الضريبة الحربية التي فرضت على المدينة . وهو مبلغ قدر بـــ ٨٠٠٠ فرنك.مما يجعل تلك العائلة قد نالت إجمالياً مبلغ ٢٣٠٠٠ فرنك(٤)

وإذا كان هذا عطاء فرنسا لأسرة صوفية واحدة لطريقة صوفية واحدة فما بالك ببقية الطرق الأخرى ؟ يقول الدكتور التليلي العجيلي في معاونة هذه الطريقة المدنية " لولا مهادنتها وسلبيتها لما نالت تلك الإنعامات والامتيازات (٥)

---

١) السابق نفس الصفحة .

٢) الإسلام الطرقي د/ لطيفة الأخضر ٩٤ .

٣) الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية د/ التليلي العجيلي ١٣٧ ، ١٣٨

٤) السابق ١٣٨ ، ١٣٩ .

٥) السابق ١٣٨ .

وقد بلغ من قوة المستعمر في احتوائه للطرق الصوفية وسيطرته عليها إن قام بتعيين مشايخ الطرق الصوفية في بعض الوظائف التي تخـــدم مصالحه من ذلك مثلاً .

أن عمران بن عبد السلام الفيتوري ـ مقدم الطريقة السُّلامية [1] قد وظفته سلطة الاستعمار في إعادة العربان الفارين إلى طرابلس الغرب على إثر دخول الاستعمار الفرنسي للبلاد حيث أرجع كافتهم في عشرة أيام ففي يوم واحداً ركب ١٥٠٠ نفساً على حد قوله [2]

أما الشيخ الأزهاري بن مصطفى بن عزوز شيخ الطريقة الرحمانية فقد وقع تكليفه بالاتصال بالشيخ الحفناوي للعمل على افتكاك بقايا المركب الفرنسي الذي غرق بقربة من طبرقة من سكان جبل خمير [3] ولما اندلعت الحرب العالمية الأولى كلفه الكاتب العام للحكومة الفرنسية بمد الدولة بما تحتاجه من الخيل . وحث الأهالي على الانخراط في الجندية فقام بذلك على أكمل وجه . وتقديراً لخدماته وقع تقليده . وسام الشرف الفرنسي . ونيشان الافتخار [4] كما أن سعيد بن عمار الشابي من الطريقة الشابية [5] كثيراً ما وقع تكليفه بإعادة الهمامة كلما خرجوا عن الطاعة حتى حصل بذلك الأمن والاستقرار . كما لعب مقدم التيجانية سعد بن الحاج ناصر دوراً هاماً أثناء حوادث الجنوب فيما بين ١٩١٥م ، ١٩١٦م حيث اجتمع أكثر من مرة بأتباع الطريقة وحثهم على الوقوف إلى جانب فرنسا ـ كما قرأ عليهم عدة تعليمات في هذا المعنى واصلة إليهم من شيخ الطريقة الأم بالجزائر [6] .

---

١) فرع من الطريقة الشاذلية وتنسب إلى مؤسسها المذكور . انظر الطرق الصوفية د/ التليلي ٤٦ .

٢) السابق ٩٦ .

٣) السابق ٩٧ .

٤) السابق ٩٧ .

٥) أحد فروع الطريقة الشاذلية .

٦) الطرق الصوفية د/ التليلي العجيلي ٩٧ .

إن هذه النماذج ترينا كيف تمكنت السلطة الاستعمارية بتوظيفها لبعض مشايخ الطرق الصوفية من تحقيق عدة أهداف بأقل تكليف وفي مدة وجيزة كما وفرت لها الأمن والاستقرار في أشد الفترات حرجاً [1] كما ضمنت بذلك ولاء هؤلاء الطرقيين ووقوفهم في صفهم . وإن قابل ذلك فقدانه بعض المشايخ هيبتهم ونفوذهم بين الإتباع [2] .

وقد كان لسلطة الاحتلال تدخلاً أقوى من المذكور وهو تدخلها في تسمية مشايخ الطرق الصوفية وتعيين الأكثر ولاءاً للفرنسيين واستبعاد من له نشاط معاد لفرنسا . عن طريق المراقب المدني في تونس [3] . ولا عجب بعد ذلك أن ترى مشايخ الطرق الصوفية يقدمون فروض الطاعة والولاء لأسيادهم الفرنسيين .

وتزداد سياسة المستعمر في تونس لاحتواء مشايخ الطرق الصوفية ولكن هذه المرة عن طريق الزواج والمصاهرة . حتى لا تكون هناك أي مقاومة لهم " فقد تزوج شيخ زاوية عين مهدي بالأنسة أوريلي بيكار التي تعرف عليها بمدينة " بوردذ " أما مولاى عبد السلام شيخ الطريقة الطيبية فقد تزوج بمدرسة إنجليزية . وفي هذه الأيام الأخيرة طلب سيدي حمزة شيخ أولاد سيدي الشيخ يد الأنسة " فوري " ابنه المسئول على مراقبة الخطوط الحديدية ... ولا تقف هذه الصداقة عند هذا الحد فقد اشتهر روا الممثل القنصلي الفرنسي الكاف بصداقته المتينة مع سيد محمد الميزوني شيخ القادرية بالكاف مع ابنه بالتبني سيدي قدور . وقد كان روا يتردد على بيته . وقد كان سيدي قدور لا ينقطع عن الثناء على سيدي روا طالباً من الله أن يحفظه لتونس [4] .

---

١) السابق ٩٨ .

٢) السابق ٩٨ ، ٩٩ باختصار وتصرف .

٣) انظر الإسلام الطرقي د/ لطيفة الأخضر ٩٣ .

٤) المرجع السابق .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ـ كيف يقاتل الطرقي الفرنسيون بعد أن صاهرهم وصار أجداد أبنائه وأخواله وخالاته منهم ؟

إن الذي حدث هو العكس فبدل أن يقاتلهم الطرقيون قاتل الطرقيون معهم في حربهم ضد ألمانيا . فصاروا بذلك في ركاب الفرنسيين داخليا وخارجياً " فقد دعا بعض شيوخ الزوايا أهالي تونس للانخراط في الجندية للمساهمة في الحرب إلى جانب فرنسا ـ ضد ألمانيا ـ مثل الأزهاري بن مصطفى بن عزوز شيخ الزاوية الرحمانية بنقطة وشيخ الزاوية التيجانية بيو عراوة المتوبي التيجاني الذي شجع ابنه الشريف التيجاني على الانخراط بنفسه في عسكر زواوي الصف الرابع للمساهمة في الجبهة الفرنسية [1] .

ويستحيل على شخص قاتل معهم وانخرط في صفوفهم أن يقاتلهم . ومن يقرأ النص التالي يعلم مدى التبعية والولاء من الطرق الصوفية ـ لفرنسا ـ وهذا النص يكاد يكون موحداً لرسائل الولاء ـ يعني أنه سمة عامة وليس تصرفاً فردياً أو شخصياً . يقول النص الموجه إلى المقيم العام الفرنسي بتونس " لقد حزنا وكئبنا عندما علمنا بأن زعماء الحكومة العثمانية قد التحقوا بألمانيا المتوحشة في هذه الحرب .

وبهذه المناسبة نجدد اعتبارات ولائنا لملكنا المحبوب وإلى الأمة الحامية لنا " الإمضاء " محمد بن شعبان شيخ القادرية الأكبر . محمد البشيري شيخ الرحمانية الأكبر . أحمد الشريف . شيخ العيساوية الأكبر [2]

أما الإعفاءات والتسهيلات التي منحها المستعمر الفرنسي لأرباب الطرق الصوفية فكثيرة كالإعفاء من الخدمة العسكرية . وبعض الإدارات الدولية . ومن بعض المحاكمات . وكذلك التسهيلات والإمتيازات أيضاً كالمنح المادية والقروض المالية والحوالات العينية [3] .

---

١) الإسلام الطرقي ٨١/٨٢ والطرق الصوفية د/ التليلي العجيلي ٩٧ .

٢) الإسلام الطرقي د/ لطيفة الأخضر ٨١ .

٣) انظر الطرق الصوفية د/ التليلي العجيلي ٩٣ ، ٩٤ .

وهذه النماذج الأخرى تجعلنا نقول : إن المقاومة كانت ضعيفة إن لم تكن معدومة . وأن الإطار العام والخط الدفاعي عند أرباب الطرق الصوفية يكاد يكون معدوماً . ولذلك دخل الفرنسيون تونس بلا مقاومة تذكر .

ومن القصص المشهورة التي نشرها الذين يشنعون على الطرق الصوفية وسيلتهم المقيتة في قضية الجهاد ما ذكره مصطفى كامل في كتابه المسألة الشرقية عن سقوط القيروان " في تونس " أن رجلاً فرنسياً دخل الإسلام وسمي نفسه سيد احمد الهادي واجتهد في تحصيل الشريعة حتى وصل إلى درجة عالية وعين إماماً لمسجد كبير بالقيروان ...

فلما اقترب الجنود الفرنسيون من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها . وجاءوا يسألونه أن يستشير الضريح الذي في المسجد . ودخل سيد أحمد الضريح . ثم خرج يقول .. إن الشيخ ينصحكم بالتسليم ، لأن وقوع البلاد صار محتماً .. فاتبع القوم كلمته ودخل الفرنسيون آمنين في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨١م [١] .

وحكى الرئيس الحبيب بورقيبة قصة شبيهة بهذه القصة مع اختلاف في بعض الألفاظ وفيها أن الشيخ قعد مطرقاً رأسه وهو يقول " لا حول ولا قوة إلا بالله " فلما سأله أتباعه عن الأمر الذي يقلقه قال لهم : لقد رأيت الخضر وسيدي أبا العباس الشاذلي وهما قابضان بعصان جنرال فرنسا .. ثم أدخلا الجنرال أمرتونس .. يا جماعة هذا أمر الله فما العمل ؟ فقالوا له : إذا كان سيدي أبو العباس راضياً ونحن نحارب في سبيله فلا داعي للحرب . ثم دخل الجيش الفرنسي تونس دون مقاومة [٢] ثم يقول أبو رقيبة " إنني أطلعت على الميزانية الفرنسية فوجدت فيها مخصصات ضخمة للطرق الصوفية لأنها تخدر أعصاب المسلمين عن الجهاد [٣] .

---

١) انظر التصوف في الإسلام د/ عمر فروخ ١١ وقد نقل ذلك من المسألة الشرقية لمصطفى كامل ٢١٢ ط مصر ١٩٨٩م والصوفية من الوجه الآخر د/ محمد جميل غازي ١٠٩ وهذه هي الصوفية الشيخ عبد الرحمن الوكيل ٢٠١ ، ٢٠٢ والإسلام الطرقي د/ لطيفة الأخضر ٧٦ ، ٧٧ .

٢) انظر كتب ليست من الإسلام الأستاذ / محمود مهدي الاستانبولي ٧٤ هامش ١ ط المكتب الإسلامي ط ١٤٠٣/٢هـ ـــ ١٩٨٣م .

٣) كتب ليست من الإسلام ٧٤ ، ٧٥ هامش ١ .

والخلاصة في أمر تونس كما تقول الدكتور لطيفة الأخضر وهي أكاديمية تونسية وكما يقول الدكتور التليلي العجيلي وهو تونسي أيضاً أن الطرق الصوفية لم تسجل أي مقاومة أمام الاحتلال الفرنسي [1] " وأن الموقف العام لهذه الطرق يتسم بالسلبية والركون إلى المسالمة والمهادنة إزاء دخول المستعمر الفرنسي إلى البلاد التونسية [2].

وترى الدكتورة لطيفة الأخضر أن المقاومة من الطرق الصوفية إن ثبتت لا ترجع إلى الدين . وإنما ترجع إلى أمور ذاتية ومصالح دنيوية كالغاء الحرمة [3] — ومنع الزيارات والمس بالأجناس [4]... الخ [5] ويزيد د/ التليلي العجيلي العصبية القبلية [6] .

والصحيح تفسير ذلك ببعض المناطق دون الكل . وإلا فهناك مقاومة وإن كانت ضعيفة لا تصل إلى مساواة المعاونة .

٣ . في الجزائر :

سياسة المستعمر مع الطرق الصوفية في بلاد المغرب العربي واحدة . والطريقة التي استخدمتها فرنسا في الجزائر هي نفس الطريقة التي استخدمتها في تونس تقريبا . ومن وسائل المستعمر في الجزائر . الإغراء بالمال .

يقول الدكتور / عبد الله عبد الرازق " إن الإدارة الاستعمارية كانت تشجع رجال الطرق الصوفية وخصوصاً التيجانية وكان هذا التشجيع بالمال والنفوذ [7] ويقول جوليان مثنيا على الحكومة الفرنسية " لقد عرفت الحكومة الفرنسية كيف تجمع المتصوفة الذين مولتهم وحمتهم [8] .

---

١) انظر الإسلام الطرقي ٧٧ والطرق الصوفية د/ التليلي العجيلي ١٤٩ .

٢) الطرق الصوفية ١٤٩ .

٣) أشبه بالحصانة التي تكون لمقدم الطريقة وأتباعه في الزوايا الصوفية .

٤) الأجناس : ويقصد بها الأوقاف العامة والخاصة .

٥) الإسلام الطرقي د/ لطيفة الأخضر ٩٦ — ١٠٤ .

٦) انظر الطرق الصوفية ١٣٣ .

٧) انظر الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ٦٥ .

٨) تاريخ المغرب روم لاندو ١٤٣ والطرق الصوفية في القارة الأفريقية ٦٦ .

وأرى أن خطبة الشيخ محمد الكبير شيخ الطريقة التيجانية في الجزائر والمسماة " بخطبة الأخلاص " فيها الخدمات الجليلة التي قدمتها الطريقة لتوطيد الاستعمار الفرنسي في الجزائر . وفي تسهيل مهمة الاحتلال . وما يجب على الأحباب والمريدين أن يفعلوه تجاه حبيبة القلوب " فرنسا " لنرى من خلالها أن التيجانية تحولت من مرحلة المعاونة إلى مرحلة العمالة . قال الشيخ محمد الكبير صاحب السجادة الكبرى " التيجانية " وهو خليفة الشيخ أحمد التيجاني الأكبر مؤسس هذه الطريقة . وهو من الشخصيات التي تسيطر على جميع أرواح الأحباب المريدين التيجانيين في مشارق الأرض ومغاربها " إنه من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا مادياً وأدبياً وسياسياً . ولهذا فإني أقول لا على سبيل المن والافتخار ولكن على سبيل الاحتساب والشرف بالقيام بالواجب .. أن تصل بلادنا وقبل أن تحتل جيوشها الكرام ــ كذا ديارنا [1] .

ويعلل ذلك بقوله " إن فرنسا حلت عنا ما يثقل كواهلنا من أعباء الملك والسيادة وحلت الأمن والثروة والرخاء والسعادة [2] .

ويفتخر بأن جده الشيخ محمد الصغير رئيس الطائفة التيجانية أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا . وهو الأمير الجزائري عبد القادر . فيقول " ففي سنة ١٨٣٨م كان جدي سيدي محمد الصغير .. أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا . الأمير عبد القادر ... وأن جدي أبي وامتنع أن يرى وجهاً لأكبر عدو لفرنسا . فلم يقابل الأمير عبد القادر [3] ثم عدد الأعمال التي قامت بها الطريقة التيجانية لفرنسا . وهي أن :

أ ــ في سنة ١٨٦٤ م كان عمي سيدي أحمد صاحب السجادة التيجانية يومئذ مهّد السبيل لجنود الدوك دوما . وسهل عليهم السير إلى مدينة بسكرة وعاونهم على احتلالها [4] .

---

١) انظر دراسات في التصوف إحسان الهي ظهير ٢٧٤ ، ٢٧٥ إدارة ترجمان السنة باكستان د/ت .

٢) انظر دراسات في التصوف إحسان إلهي ظهير ٢٧٥ .

٣) السابق ٢٧٥ وتحفة الزائر في تاريخ الجزائر ج ٣٠١/١ وما بعدها .

٤) انظر دراسات في التصوف ٢٧٥ والتيجانية د/ علي بن محمد آل دخيل الله ٦٨ .

ب ــ وفي سنة ١٨٧٠م حل سيدي أحمد تشكرات الجزائريين للبقية الباقية من جنود " التيرايور " الذين سلموا من واقعة " ريش . هوفن" وواقعة " ويساتيور " ولكي يظهر ولاءه الراسخ وإخلاصه الكبير . برهن على ارتباطه بفرنسا ارتباطاً قلبياً فتزوج من السيدة النصرانية الكثوليكية " أوريلي بيكار " ... وكان زواجها على يد الكاردينال . لافيجري " على حسب الطقوس الدينية المسيحية . ولما توفي عنها سيدي أحمد هذا خلفه عليها وعلى السجادة التيجانية أخوه سيدي علي . وكانوا يسمونها زوجته السيدين . ونظرا لمجهودات ــ مدام أوريلي هذه المارية السياسية فإن فرنسا الكريمة قد أنعمت عليها بوسام الاحترام من رتبة جون الشرف (١) ولما أنعمت عليها فرنسا بوسام الشرف نالت الحكومة في تقريرها الرسمي ما نصه " إن هذه السيدة قد أدارت الزاوية التيجانية الكبرى إدارة حسنة كما تحب فرنسا وترضى . ولأنها كسبت للفرنسيين مزارع خصبة ومراعي كثيرة لولاها ما خرجت من أيدي العرب الجزائريين " التيجانيين " ولأنها ساقت إلينا جنوداً مجندة من أحباب هذه الطرقية ومريدها يجاهدون في سبيل فرنسا صفاً كأنهم بنيان مرصوص " (٢) .

واليوم نعيش " أيم التيجاني في مزرعة كبرى لها في ضواحي مدينة بعلباس ــ وهران ــ عيشة المترفين ذوى الرفاهية والنعيم وهي الآن لم تقطع علاقتها بالزاوية التيجانية بل لا تزال تسيطر عليها .. وإنها لا تزال على مسيحيتها إلى هذه الساعة .. ومن العجيب أن إحدى وستين سنة قضتها كلها في الإسلام وبين المسلمين من ١٨٧٠م إلى سنة ١٩٣٠م لم تغير من مسيحيتها شيئاً . وهذا دليل على ما كانت تكنه في قلبها لهؤلاء الأحباب الذين حكموها في رقابهم وأموالهم (٣) .

---

١) دراسات في التصوف ٢٧٥ ، ٢٧٦ والتيجانية د/ دخيل الله ٦٨ والصوفية ــ الوجه الآخر ١١٠ والانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين على بن بخيت الزهراني ج ٥٤٢/١ دار طيبة مكة المكرمة دار عمار .

٢) دراسات في التصوف ٢٧٦ والتيجانية د/ دخيل الله ٦٨ والانحرافات العقدية ج٥٤٢/١ .

٣) دراسات في التصوف إحسان الهي ظهير ٢٧٦ والتيجانية د/ دخيل الله ٦٢ والانحرافات العقدية والعلمية ج ٥٤٢/١ .

جـ ـــ وفي سنة ١٨٨١م كان أحد مقادمباس [١] عبد القادر بن حميدة قد مات شهيداً مع الكولونيل فلاتين حيث كان يعاونه على احتلال بعض النواحي الصحراوية [٢] .

د ـــ وفي سنة ١٨٩٤م طلب متاجون كوميون والي الجزائر العام يومئذ ان نكتب رسائل توصية . فكتبنا عدة رسائل إلى أحباب طريقتنا فأمرهم بالسمع والطاعة لحمله فورلامي الفرنسية . وأن يعاونوها على احتلال تلك البلاد وعلى نشر العافية فيها [٣]

هـ ـــ وفي سنة ١٩٠٦م ـــ ١٩٠٧م أقام جاسوس برتبة ضابط ويدعى مرالت في زاوية كوردان شهراً كاملاً لأداء مهمة سياسية .. وكتب له شيخ الطريقة رسائل توصية إلى أتباعه تبشرهم بالاستعمار الفرنسي وتأمرهم بالسمع والطاعة والاستسلام والخضوع العام [٤]

و ـــ وفي الحرب العالمية أرسلنا ووزعنا في شمال أفريقيا منشورات تلغرافية وبريدية استنكر فيها شيخ الطريقة دخول الأتراك في الحرب ضد فرنسا الكريمة ..وأمرنا أحباب طريقتنا بأن يبقوا على عهد فرنسا وعلى ذمتها ومودتها[٥].

ز ـــ وفي سنة ١٩١٦م أجابة لطلب الماريشال ليوتي عميد فرنسا في مراكش كان سيدي علي ـــ صاحب السجادة الذي كان قبلي ـــ كتب ١١٣ رسالة توصية للزعماء الكبار واعيان المغرب يأمرهم فيها بإعانة فرنسا في تحصيل مرغوبها وتوسيع نفوذها [٦] .

---

١) هي رتبة في الطريقة التيجانية . والمقدم من أجازه الشيخ في تلقين الورد للناس .

٢) دراسات في التصوف ٢٧٧ والتيجانية د/ دخيل الله ٦٨ .

٣) دراسات في التصوف ٢٧٧ والتيجانية د/ دخيل الله ٦٨ .

٤) دراسات في التصوف ٢٧٧ .

٥) السابق ٢٧٧ .

٦) السابق ٢٧٧ باختصار .

حـ ــ وفي سنة ١٩٢٥م كتب شيخ الطريقة إلى الثوار في المغرب الأقصى " فاس " يأمرهم فيها بالخضوع لفرنسا [١] .

وباجملة فإن فرنسا ما طلبت من الطائفة التيجانية نفوذها الديني إلا وأسرعت بكل فرح ونشاط بتلبية طلبها وتحقيق رغائبها . وذلك كله لأجل عظمة ورفاهية وفخر حبيبتا فرنسا النبيلة [٢] والله المسئول أن يخلد وجودها بيننا لنتمتع برضاها الخالد ، ثم ختم خطبته بالثناء العاطر على كبار الضباط العسكريين والموظفين الفرنسيين واحداً واحداً [٣] .

وإذا كان لنا تعليق على ما قدمته هذه الطريقة لفرنسا وما منحته إياها فهو أن التيجانية في الجزائر كانت موالية لفرنسا ومعاونة لها . ولولا الخدمات التي قدمتها ما احتلت الجزائر . والحقيقة أن هذه الطريقة ما تركت شيئاً يمكن أن يحقق لفرنسا أطماعها الاستعمارية إلا وقامت به على أكمل وجه حتى لو كان ذلك التجسس جاء في كتاب " تاريخ العرب الحديث والمعاصر " تحت عنوان " المتعاونون مع فرنسا في الجزائر .. إن بعض الطرق الصوفية الذين أشاعوا الخرافات والبدع وبنوا روح الانهزامية والسلبية في النضال . استخدمهم الاستعمار كجواسيس [٤]

ويقول الدكتور / مبارك محمد الميلي : كانت جمعية العلماء في الجزائر تحتوي على أخلاط من هؤلاء ــ يعني أصحاب الطرق ــ وكانوا يحضرون جلساتها لا خدمة لغايتها ولا إعانة لإدارتها ولكن عينا علينا فاجرة تبلغ وتشي إلى إدارة الأمور الأهلية [٥] .

---

١) السابق ٢٧٧ باختصار وانظر كذلك مشتهى الخارق الجاني في رد زلقات التيجاني الجاني للشيخ محمد الخضر الشنقيطي ٦١٦ ــ ٦٢١ دار البشير عمان الأردن ط ١٤١٥/١هـ .

٢) دراسات في التصوف ٢٧٨ .

٣) السابق ٢٧٨ .

٤) انظر الصوفية .الوجه الآخر د/محمد جميل غازي ١٠٩ وقد نقل ذلك من كتاب "تاريخ العرب الحديث والمعاصر"

٥) انظر رسالة الشرك ومظاهرة تأليف مبارك بن محمد الميلي ٢٤٨ دار الغرب الإسلامي ط ١٤٢١/٥هـ ــ ٢٠٠٠م والصوفية نشأتها وتطورها محمد العبدة وطارق عبد الحليم ١٠٣ ، ١٠٤

ولم يقف أمر التيجانية في الجزائر عند هذا الحد بل وقفت في وجه الذين رفعوا راية الجهاد ضد فرنسا . وهو الأمير عبد القادر الجزائري . كما وقفوا في وجه الإصلاحيين أيضاً من أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس [١] ومحمد البشير الإبراهيمي [٢] وغيرهما .

ذكر روم لاندو في كتابه تاريخ المغرب وثيقة خطيرة بعث بها خليفة التيجاني إلى أتباعه رداً على رسالة المارشال " بوجو " بمناسبة الحرب بين فرنسا والأمير عبد القادر الجزائري سنة ١٩٢٥م يدعو فيها إخوانه إلى مؤازرة الدولة المسيحية ضد مواطنيهم من المسلمين [٣] .

فالتيجانية كانت تقف في وجه الأمير عبد القادر الجزائري لأنه كان يحارب حبيبة قلبها فرنسا . وقد تقدم أن شيخ الطريقة قال " إن جدي أبي وامتنع أن يرى وجها لأكبر عدو لفرنسا . فلم يقابل الأمير عبد القادر [٤] علماً بأن الأمير كان

مكتبة الكوثر الرياض ط ٤ سنة ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠١م والطرقية وعلاقتها بالاستعمار منتديات المهدي ٣ ، ٤ .

١) هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس ولد عام ١٨٨٩م أسس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر . وكان شديد الحملات على الاستعمار والطرقية أيضاً له تفسير القرآن ط باسم مجالس التذكير توفي عام ١٩٤٠م انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج ٢٨٩/٣ والموسوعة الحركية ج١٣٤/١ ــ ١٤٣ وابن باديس حياته وآثاره جمع ودراسة د/ عمار الطالبي ج٧٢/١ ــ ٩٨ دار الغرب الإسلامي بيروت ط ٢/سنة ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م وعبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي د/ مازن مطبقاني ٢٧ ــ ٤٥ دار القلم دمشق ط ٢ سنة ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م

٢) ولد الشيخ محمد البشير عام ١٨٨٩م نفس العام الذي ولد فيه ابن باديس . وشاركه حياته العلمية والجهادية ــ له مؤلفات كثيرة ومواقفه وآرائه سجن وعذب توفي عام ١٩٦٥م انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ٥٤/٦ والموسوعة الحركية ج٣٥/١ ــ ٤١ .

٣) انظر تاريخ المغرب في القرن العشرين ١٤١ والطرق الصوفية في القارة الأفريقية ٦٦ .

٤) دراسات في التصوف ٢٧٥ وتحفة الزائر في تاريخ الجزائر ج ٣٠١/١ .

صوفياً كبيراً وصاحب طريقة كما تقدم . ولكن شتان بين طريقة صوفية . تقاوم " في الميدان " وطريقة تعاون .

ولقد نجحت فرنسا في تجنيد التيجانية بكل طاقاتها لتحقيق مصالحها وخاصة وقوفها في وجه الأمير الجزائري كما نجحت أيضاً في تجنيد بعض الشخصيات الفرنسية لخداع الجزائريين وتضليلهم . وذلك للحصول على فتوى تدل على عدم مشروعية المقاومة التي يقودها الأمير الجزائري من هؤلاء " ليون روش "[1] وهو فرنسي قام برحلة إلى مصر سنة ١٨٤٢م متنكراً في زي حاج مسلم من أجل الحصول على موافقة من العلماء على نص فتوى بها من الجزائر تجعل الجهاد ضد الفرنسيين من باب إلقاء النفس إلى التهلكة . ومن ثم ضرورة الرضا بحكم الفرنسيين للجزائر . وعدم شرعية المقاومة التي يقودها الأمير عبد القادر الجزائري[2] .

ولما كانت التيجانية تمثل شوكة للأمير عبد القادر في الجزائر بسبب اعتدادها بفرنسا فقد أراد القضاء عليهم قبل أن يقاتل الفرنسيين[3] واستطاع الرجل أن يكشف أسرارهم ويهتك أستارهم . وكانت له الغلبة عليهم[1] .

---

١) ولد ليون روش " ١٨٠٩ ــ ١٩٠١م " بمدينة غرنوبل بفرنسا ــ تعلم اللغة العربية وأصبح ترجماناً في الجيش الفرنسي التحق بجيش الأمير عبد القادر عام ١٨٣٧م بحجة إسلامه . ولقد نجح في التقرب من الأمير . حتى أصبح كاتم سره وعندما تمكن من معرفة جميع أسراره وخططه العسكرية وقدراته المادية ونقاط ضعفه وقوته عاد إلى مقر قيادة الجيش الفرنسي . وكان له دور مهم في إحداث القطيعة بين الأمير والسلطان المغربي مولاى عبد الرحمن وفي إعداد الخطط الحربية للقضاء على المقاومة " راجع مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب . يوسف مناصرية ١٧ إلى ٤٤ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ط الأولى ١٩٩٠م . وموقف الإبراهيمي من الطرق الصوفية المنحرفة في الجزائر د/ محمد زرمان ٣٤٢ هامش ١٣٧ بحث بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية الكويت

٢) انظر الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية . ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ج ٢٤٩/١ من إصدار دائرة الملك عبد العزيز بالرياض .

٣) انظر الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ٦٦ .

كما وقفت التيجانية في وجه الأمير عبد القادر الجزائري وقفت كذلك في وجه المصلحين " ابن باديس . والشيخ البشير الإبراهيمي " .

فقد رأى الشيخان أن الاستعمار الروحي . والذي يمثله مشايخ الطرق الصوفية لا يقل خطراً عن الاستعمار المادي(٢) فلابد من التصدي له والقضاء عليه . وهذا يعني وقوع النزاع بين الطرفين ومن ورائهم الاستعمار والإصلاحيين . ويأتي رجل يدعي محمد بن عليوة ت ١٩٣٤م صاحب الطريقة العلوية ويؤلف رسالة يتجرأ فيها على مقام النبوة الكريم ويرد عليه ابن باديس برسالة شديدة قرظها كثير من العلماء (٣) فيمتلأ قلب ابن عليوة وأنصاره غيظاً . وعلى الفور دبروا مؤامرة لاغتياله وقتله . وأرسلوا له من ينفذها ... وتربص له الجاني في الطريق وهو عائد إلى بيته في منتصف الليل وهوى على رأسه بهراوة شجت رأسه وفر . ولكن إلى أين ؟ إلى منزل الإمام ليختبأ فيه ويقضي عليه بخنجر . ولكن خاب ظنه . وقبضت عليه النجدة وكادوا يفتكون به لولا تدخل الشيخ ابن باديس قائلاً لهم — كفوا عنه فليس الذنب ذنبه فما هو إلا صخرة مسخرة (٤) ويقصد الشيخ ابن عليوة وأصحابه .

وهناك من يقول إن هذا الاعتداء كان بإيعاز من الإدارة الاستعمارية التي ضاقت ذرعاً بالإمام ونشاطه (٥) .

وإذا كانت الطريقة التيجانية قد تحالفت في الجزائر مع الإدارة الاستعمارية . فإن موقفها يختلف تماماً في دولة الحاج عمر التوني العكروري جاء في حاضر العالم

---

١) انظر دعوة الإصلاح الإسلامي بين الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر والدعاة المعاصرين له في المشرق العربي د/ محمد فتحي عثمان ٤٣٨ .

٢) السابق ٤٦١ .

٣) انظر ابن باديس حياته وآثاره ج ١٥٣/٣ — ١٦٣ .

٤) انظر العلويون والخيال ابن باديس مقال على شبكة الانترنت eolen an bui

٥) انظر عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي د/ مازن مطبقاني ١١٣ .

الإسلامي " ومن الغريب أن التيجانية في الجزائر تنصح بالموالاة للفرنسيس . وفي السودان ترفع راية الجهاد [١]

فقد وقف هذا الرجل نداً عنيداً ومجاهداً كبيراً في وجه الاستعمار الفرنسي بكل ما اوتي من قوة على عكس ما كان في الجزائر [٢] والسبب في ذلك يرجع إلى : طبيعة الدراسة التي درسها الحاج عمر التكروري في الأزهر وإقامته في مصر . فقد أثر ذلك في توجيه حياته وجعله يكره الاستعمار والمستعمرين ويقاومهم [٣].. وإن الرجل كان ميسوراً وخاصة بعد زواجه من ابنة السلطان محمد بلو بن عثمان[٤] بخلاف معظم الطرقية في الجزائر فإنهم كانوا ينتظرون عطاء فرنسا ونوالها مع حرص على النفوذ والشهرة . لذلك استغلوا هذا الجانب في التيجانيين[٥] .

أن جهاد الرجل أثمر دولة أصبحت خطراً كبيراً على الاستعمار [٦] يقول أحد الباحثين " أسس الحاج عمر القوتي الفكروري إمبراطورية كبرى في غرب القارة وطبق فيها أسس التيجانية [٧] أما الآخرين فقد باعوهـــا للفرنسيين بثمن بخس .

والذي يلفت النظر في التيجانية أنها توجه بتلقائية من مشائخها . وانقياد من أربابها في الجزائر وجههم المشايخ إلى الفرنسيين فأعانوهم وفي السنغال وجههم الحاج عمر إلى المقاومة فقاوموهم . فالطريقة الواحدة تختلف من بلد إلى بلد ومن شخص إلى شخص حسبما يوجهها هذا الشخص . وهذا ما يجعلها توالي في مكان وتعادي في مكان آخر .

---

١) انظر حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستودارد تعليق الأمير شكيب أرسلان ج٣/٤٦
٢) انظر الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ٦٦ .
٣) انظر التيجانية د/ دخيل الله ٧٠ .
٤) انظر تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم د/ شوقي عطاء الله الجمل وعبد الله عبد الرازق ٩٩.
٥) انظر التيجانية د/ دخيل الله ٧٠ ووجوه مجاهدة الحاج عمر التكروري الأخرى .
٦) انظر حاضر العالم الإسلامي ج ٣/٤٩ .
٧) انظر الطرق الصوفية في القارة الأفريقية د/عبد الله عبد الرازق ٣٦ .

وهذا ما نجده أيضاً عند القادرية في الجزائر أيضاً . فقد أرسل شيخ الطريقة القادرية رسالة إلى الشعب الجزائري مطالبه فيها بالانضمام للجيش الفرنسي أو تقديم العون المادي للمجهود الحربي يقول ما نصه "وها أنا فرد منكم أقدم نفسي بإخلاص لدفع إعانة مالية عوضاً عن عجز صحتي البدنية قدرها عشرة آلاف فرنك"[1] وقارن ذلك بما فعله الأمير عبد القادر الجزائري وهو قادري أيضاً في المرحلة الأولى من جهادة للفرنسيين ففي الطريقة الواحدة المقاوم والمعاون . والموالي والمعادي . وهذا الأمر من الخطورة بمكان . لدرجة أن الباحث لا يستطيع الحكم بسهولة على طريقة ما بأنها موالية على طول الطريق . أو معادية على طول الطريق والحكم الصحيح أن لكل حاله له حكمها ولكل حادث حديث .

٤. في المغرب :

حين قام المجاهد الكبير المغربي محمد بن عبد الكريم الخطابي بالجهاد ضد الأسبان في الريف المغربي . في النصف الأول من القرن الرابع الهجري تألب عليه بعض مشايخ الطرق وقاموا بخيانته في كثير من المواقع[2] .

فخيانات بعض مشايخ الطرق الصوفية كانت من معوقات جهاد الأمير ضد الأسبان . ولا ننسى الدور الخبيث الذي قام به ليوتي " المقيم العام الفرنسي في المغرب " للإيقاع بين زعماء الثورة ولإحداث الفرقة في صفوف الثوار . وراح يتحالف مع بعض مشايخ الطرق الصوفية . وخصوصاً شيخ الطريقة الدرقاوية . وقد فشلت خطة ليوتي في الإيقاع بين الزعماء في منطقة الريف[3]

---

١) انظر عبد الحميد بن باديس د/ مازن صلاح تطيفاني ١١٤ ، ١١٥ .

٢) انظر الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا الأستاذ أنور الجندي ٥٢ الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ط ١٣٨٥هـ ــ ١٩٦٥م .

٣) انظر تاريخ المغرب في القرن العشرين روم لاندو ١٥٣ وتاريخ أفريقيا في العصر الحديث والمعاصر د/ شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق ٢٣٠ .

وإن تعجب فاعجب من شيخ الحديث في المغرب وحافظها ـــ العلامة الشيخ محمد عبد الحي الكتاني [١] والذي يعد آية في علوم الحديث ت ١٩٦٢م وهو أيضاً صوفي كبير ـــ شيخ الطريقة الكتانية [٢] كان مواليا للاستعمار الفرنسي في المغرب ومنافحاً عنه يقول الزركلي عنه " ولما فرضت الحملة الفرنسية على المغرب سنة ١٩١٢م انغمس في موالاتها [٣] وجاهر بالبيعة لابن عرفة صنيعة الفرنسيين "[٤] وكان على ما فيه من انحراف عن الجادة في سياسته صدراً من صدور المغرب [٥] .

وهذا الذي دعا الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يؤلف كتاباً في نقد سيرته سماه " نشر الطي من أعمال عبد الحي " [٦] وقد نشرت جريدة أخرى لحظة صورة أريول مسئول فرنسا وهو يمنح وسام الجيوت دونور في ٦ مارس ١٩٥٢م للكتاني في قصر الأليزية [٧] .

---

١) هو محمد عبد الحي بن عبد الكريم بن محمد الحسني الأدريسي المعروف بعبد الحي الكتاني .. ولد وتعلم بفاس سنة ١٣٠٥هـ ـــ ١٨٨٨م وكان معادياً للأسرة العلوية . اعتقل سنة ١٩٠٩م سافر إلى كثير من البلدان فتعرف على رجال الفقه والحديث في مصر والحجاز والشام والجزائر وتونس والقيروان وعاد بأحمال من المخطوطات له مؤلفات كثيرة في الحديث والتصوف توفي عام ١٩٦٢م انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج ١٨٨/٦ .

٢) الطريقة الكتانية تنسب إلى أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني فقيه متفلسف من أهل فاس بالمغرب أسس هذه الطريقة سنة ١٢٩٠ ـــ ١٣٢٧هـ . انتقد عليه علماء فاس فساد عقيدته له مؤلفات أشهرها حياة الأنبياء ولسان الحجة البرهانية في الذب عن شعائر الطريقة الأحمدية الكتانية انظر الموسوعة الميسرة ج ٢٦١/١ .

٣) الأعلام ج ١٨٨/٦ .

٤) السابق ج ١٨٨/٦ .

٥) السابق ج ١٨٨/٦ .

٦) السابق ج ٥٤/٦ .

٧) انظر الطرق الصوفية د/ السهلي ١٦٩ .

ويذكر الدكتور تقي الدين الهلالي عداوة الكتاني للتيجانية ــ وأن الاستعمار الفرنسي هو الذي فرضه شيخاً للطريقة الكتانية فيقول " وكان الشيخ عبد الحي الكتاني عدواً للطريقة التيجانية ــ لأنه كان شيخاً رسمياً للطريقة الكتانية . وإنما قلت رسمياً لأن أهل رسلان أعني الكتانيين أنصار الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني لا يعترفون به ــ أي بالشيخ عبد الحي ويقولون إن الاستعمار الفرنسي هو الذي فرضه على الكتانيين فرضاً "[١]

وإذا كان الاستعمار الفرنسي قد أقام شيخاً للطريقة الكتانية . فلابد أن يواليهم لأنهم أصحاب نعمة وفضل عليه بالرغم أنه لم يكن المؤسس الفعلي للطريقة وباعترافه هو يقول : الدكتور تقي الدين الهلالي في حوار له معه " والطريقة الكتانية التي أنت شيخها ؟ فقال لي كل الطرائق باطلة . وإنما هي صناعة للاحتيال على أكل أموال الناس بالباطل وتسخيرهم واستعبادهم .. قال أنا لم أسس الطريقة وإنما أسسها غيري "[٢] .

وبسبب موالاته للاستعمار وانغماسه في الطرقية دخل مع الشيخ الإبراهيمي في معارك . وكانت بينهما وقائع شديدة يقول الدكتور / محمد بن زرمان " ودخل الإبراهيمي المعركة ضد عبد الحي الكتاني في حماسة شديدة . وكتب مقالات عديدة تحدث فيها عن هذه الشخصية تارة في سخرية وتهكم وتارة أخرى في ثورة وغضب وكشف عن سوءاته . وأبان عن خيانته العظيمة لشعبه ودينه . وعن الخدمات الجليلة التي قدمها للاستعمار . كما فضح أسباب زيارته للجزائر عام ١٩٣٨م وقال عنه " إن هذا الرجل منذ كان الاستعمار في المغرب آلة صماء في يده . يديره كما شاء . ويريده على ما شاء بحركة للفتنة فيتحرك ويدعوه إلى تفريق الصفوف فيستجيب . ويندبه إلى التضريب والتخريب فيجده أطوع من بناته ويريد

---

١) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ٧١٢ ، ٧١٣ دار الحرمين للطباعة ط ٤ سنة ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م وصيد الفوائد مقال على شبكة الإنترنت Saaud net.

٢) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ٧١٥ .

منه أن يكون حتى تنهك فيكون طاعونا يهلك وأن يكون له لسانا فيكون لساناً وعينا ويداً ورجلا ومقراضا للقطع . وفأساً للقلع . ومعولاً للصدع . وما شاء الاستعمار إفساد حركة إلا كانت على يديه البركة . وما شاء التشغيب على العاملين المصلحين والمطالبين بالإصلاح إلا وداهم بالداهية النكراء والصيلم الصلعاء [١] .

فولاء الشيخ الكتاني للاستعمار الفرنسي معروف ويمكن أن يقال إن سببه هو خلافه مع الأسرة العلوية المالكة كما يقول الزركلي في الأعلام [٢] كرد فعل . لكن ذلك لا يبرر ولاؤه أبداً لفرنسا . حتى يذهب إلى باريس ويختار الإقامة فيها حتى وفاته سنة ١٩٦٢م بعد أن نالت بلاده الاستقلال عام ١٩٥٥ [٣] .

ومن متصوفة المغرب ـــ الجيلاني بن عبد السلام اليوسفي والذي يلقب بأبي حمارة [٤] . وقد اتصل هذا الرجل بكثير من متصوفة تونس والجزائر . وفي الجزائر قام شيوخ الطرق بغسل دماغه بتوجيه من الموظفين الفرنسيين ووعدوه بتقديم العون إذ أتى بالقدرة على القيام بثورة لنصرة الدين [٥] وفعلاً قام الرجل بثورة على السلطات المغربية لتحقيق مآربه السياسية وليصبح أميراً على البلاد . ودامت

---

١) انظر موقف الإبراهيمي من الطرق الصوفية المنحرفة في الجزائر د/ محمد زرمان ٣٤٦ ، ٣٤٧ بحث منشور في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية الكويت ع ٤٥ ربيع الأول ١٤٢٢هـ ـــ يونيو ٢٠٠١م .

٢) الأعلام ج ١٨٨/٦ .

٣) السابق ج ١٨٨/٦ .

٤) هو الجيلاني بن عبد السلام اليوسفي الزرهوني ـــ أحد كبار الثوار الذين نسفوا استقلال المغرب وعجلوا بخرابه في العقد الثالث من القرن الرابع عشر ولد عام ١٢٨٢هـ ـــ ١٨٦٥م وغلب عليه كنية أبي حمارة فلا يعرف إلا بها ويلقب بالروكي يعني "الفتان" كان ذكياً أدعى أنه من الأسرة الحاكمة واستولى على بعض المناطق وحكمها أعدم في فاس ١٣٢٧هـ انظر ترجمته في أعلام المغرب العربي عبد الوهاب بن منصور ج ٣٠٣/١ المطبعة الملكية الرباط ١٣٩٩ هـ ـــ ١٩٧٩م .

٥) أعلام المغرب العربي ج ٣٠٧/١ .

ثورته المحمومة على البلاد سبعة أعوام انتصر فيها في كثير من المواقع وأقام دولة وعين العملاء والجواسيس في مناصب كبيرة حتى إنه عين كابريل ديلبريل الجاسوس الفرنسي رئيساً لأركان الحرب ومديراً للعلاقات العمومية . وبعد فترة تمكنت القوات المغربية من القبض عليه وعلى أتباعه وحكم عليه بالإعدام سنة ١٩٠٩م [١] .

وهذا الرجل ليس صوفيا على الحقيقة وإنما هو دعى انتحل التصوف واتخذته ستاراً لتحقيق مآربه وأغراضه . ولذلك يقول ابن منصور مؤرخ المغرب المشهور وليبر الجيلاني بقسمه تخلى عن الخدمة واستشعر نحلة التصوف . وبدأ يتجول في القبائل داعياً إلى الله في صورة عابد ناسك وهو يبحث في الحقيقة عن المكان الصالح لأعلان دعوته ولا ناس الأغرار القادرين على القيام بها والاستماتة في سبيلها [٢].

واغتر بدعوته الأغرار والسذج بتدبير من السلطات الفرنسية التي كان يهمها مثل هذه الثورات لأشاعة الفوضى ونشر الفتن في المغرب حتى تمكن قواه ويسهل ابتلاعه [٣] فأبي حمارة وإن كان جاسوساً وأقام الجواسيس في حكمه لم يكن صوفياً . وإنه كان دعيًا.ولست بذلك مع الشيخ الزهراني في جعله أبا حمارة من الصوفية[٤].

٥. في السودان :

شتان ما بين المهدية والختمية أو الميرغنية [٥] فإذا كانت المهدية قد جاهدت المستعمر وقاومته . فإن الختمية عاونته وساندته . ويكفي الأولى فضلاً أن نالت السودان حريتها واستقلالها بما قدمته من جهاد وتضحيات [١]

---

١) السابق ٣٨٩/١ ، ٣٩٠ باختصار شديد .

٢) السابق ج ٣٠٥/١ .

٣) السابق ج ٣٠٧/١ .

٤) انظر الانحرافات العقدية والعلمية د/ الزهراني ج ٥٤٥/١ ، ٥٤٦ .

٥) تنسب هذه الطريقة إلى الشيخ محمد عثمان بن محمد أبو بكر بن عبد الله الميرغني المحجوب ويلقب بالختم إشارة إلى أنه خاتم الأولياء ومنه اشتق اسم الطريقه الختمية كما تسمى الميرغنية ربطا لها بطريقة

وكالعادة المتبعة فإن المستعمر عندما يدخل بلداً فإنه يبحث عمن يدعم وجوده ويثبت أركانه . وكانت الطرقية خير من يقوم بهذه المهمة وهذا ما فعله الإنجليز عندما دخلوا السودان يقول أحد الباحثين " وجد الإنجليز أن الختمية خير معين لهم في تنفيذ سياستهم وتحقيق مخططاتهم وأهدافهم [٢]

ويذكر أبو حسبو أنه عندما تقرر إعادة فتح السودان كان من رأي الإنجليز والمصريين على السواء أن يرافق الجيش الفاتح رجل " من رجال الدين المتبوعين في شمال السودان ... وكان الزبير باشا وقتها منفياً فاستشير في الأمر فرشح السيد علي الميرغني [٣] ليكون رجل الدين الذي يرافق الجيش نظراً لما لطائفته الختمية من نفوذ في تلك المناطق . وقد وافق السيد علي الميرغني على ذلك حتى يستطيع جمع شمل أتباعه الذين أرهقهم الحكم المهدي وفرق شملهم " [٤]

وانفتح السيد علي الميرغني في التعامل مع الإنجليز انفتاحاً كبيراً وتحول من جندي يدافع عن بلده إلى جندي بها جهها . وتحكي الروايات أنه لم يستنكف أن

جد المؤسس عبد الله الميرغني المحجوب ولد بمكة عام ١٧٨٣م وأخذ العلوم الشرعية على يد علمائها ودرس الفقه والتفسير والحديث واللغة ـــ وكتب كتاب تاج التفاسير وبعض الرسائل في اللغة والتوحيد ومصطلح الحديث لكن غلب عليه التصوف فاشتغل به توفي عام ١٨٥٣م بالطائف انظر الموسوعة الميسرة ج ٢٩١/١ وطائفة الختمية أصولها التاريخية وأهم تعاليمها أحمد محمد جلي ١٣ ـــ ٢٠ دار خضر للطباعة والنشر بيروت لبنان ط ١٤١٣/١هـ ـــ ١٩٩٣م .

١) انظر الاستعمار البريطاني في السودان وعزلته من الإسلام د/ محمد سعيد القدال ٢ ـــ ٥ صحيفة الصحافة الأكترونية السودان ع ٤٨٠٤ .

٢) انظر طائفة الختمية ٢٦ .

٣) السيد علي الميرغني ولد بجزيرة مسوي مركز مروي بشمال السودان ١٨٨٠م انتقل مع والده إلى كسلا ولما هزم على يد جيوش المهدي تركه والده مع عمه تاج السر الحسن بسواكن وهاجر إلى مصر لعب دوراً خطيراً مع الإنجليز ضد بلاده توفي عام ١٩٦٨م انظر الموسوعة الميسرة ج ٢٩٢/١ .

٤) انظر مذكرات عبد الماجد أبو حسبو ج ٨١/١ دار صنب للنشر والتوزيع الخرطوم السودان ط ١٩٨٧/١م .

يلبس الزي العسكري ويصبح جنديا رسمياً في الجيش الغازي إظهاراً لتأييده للغزو الإنجليزي وتدعيماً لشرعيته [١] .

وهذه الرواية طعن فيها الأستاذ محمد أحمد عمر وقال إنها لا تثبت من الناحية التاريخية وإنها من مفتريات الإنجليز ومن اختراع جنود كتشنر فيقول " ولا أدري من أين نبعت هذه الفكرة الخبيثة وسكنت في رؤوس الجهلاء مولانا السيد علي الميرغني كما هو ثابت تاريخياً دخل الخرطوم لأول مرة في ١٩٠١م وكتشنر دخل السودان وأكمل الفتح في عام ١٩٨٩م والخليفة قتل في أم ديكرات في عام ١٨٩٩م فكيف يكون السيد علي مع الجيش الغازي [٢] يقول " وأغلب الظن أن فرية دخول السيد علي إلى السودان مع الإنجليز هي من اختراع جنود كتشنر .. وإن الإنجليز هم الذين روجوا لهذه الفرية " [٣]

ونفي الرواية لا ينفي الولاء والمعاونة للإنجليز وهذا من الأمور المشهورة وإلا فكيف نفسر تكريم الإنجليز له . ومنحهم إياه المنح والرواتب وغير ذلك ؟ ومن ذلك أنهم أعادوا له بناء مسجد الختمية الرئيسي الذي يعرف في عهد المهدية رغم سياسة الإنجليز المتمثلة في عدم إعادة بناء زوايا الصوفية [٤] ومكنوه من الخرطوم . وهناك سعوا إلى تمكينه وتهيئته للدور المنوط به وأعدوه ليكون زعيماً دينياً لا لطائفة الختمية فحسب بل لكل الطوائف والطرق في السودان . ومنحته الحكومة بعض الأراضي له ولأفراد أسرته ولعل من أهمها ما يعرف بجنينة السيد علي ــ كما

---

١) طائفة الختمية د/ جلي ٢٧ .

٢) انظر الختمية ــ العقيدة والتاريخ والمنهج الأستاذ محمد أحمد عمر ٥٦ دار المأمون الخرطوم السودان ط ٢/١٤٠٧هــ ــ ١٩٨٧م .

٣) السابق ٥٧ ، ٥٨ .

٤) انظر طائفة الختمية د/ جلي ٢٧ وقد نقل ذلك من The sudan under wing ate والاستعمار البريطاني في السودان وموقفه من الإسلام د/ محمد سعيد القدال ١ ــ ٤ صحيفة الصحابة الاكترونية ع ٤ ــ ٤٨ .

منحته هو وأخوه أحمد الذي آثر المقام في كسلا راتباً شهرياً [1] كما منح عام ١٩٠٠م لقب سير ليكون أول زعيم سوداني يحمل هذا اللقب البريطاني حتى الحرب العالمية الأولى [2]

وقد ورد في خطاب اللورد كرومر ديسمبر عام ١٩٠٠م ما يلي " وإني الآن باسم جلالتها سأقلد فرداً من أشرف أهالي السودان المسلمين وساماً انجليزياً نظراً إلى ما عرضه عنه سعادة الحاكم العام لجلالتها وهو السيد علي بن السيد محمد عثمان الميرغني الشهير [3] وقد اعترف الإنجليز بولاء السيد علي الميرغني لهم . ولمدة أربعين سنة فقالوا عنه " إنه تقليدياً وبحكم تربيته رجل محافظ ذو شخصية جذابة وله تأثير عظيم على أتباعه وأنه ظل مؤيداً للحكومة البريطانية في ولاء تام ومستمر ولمدة أربعين سنة رغم أنه يتميز بصفة مراقب لا كرجل فعل " [4]

ولما اقترح سيسل عام ١٩١٦م إيقاف المنح التي تعطي للسيد علي وأخيه أحمد اعترض ونجت بقوة قائلاً " إنهما من القلائل اللذين يقفون إلى جانبنا في صدق وإخلاص " [5] .

وإذا كان السيد علي الميرغني بهذه المثابة فلا غرابة أن يكون هو وأفراد طائفته الختمية عيونا ساهرة للحكومة الإنجليزية يقول أحد الباحثين " إن أفراد طائفة الختمية كانوا عينا ساهرة للحكومة تكشف وترصد كل تحرك مناوئ لها من أتباع المهدي وبقايا الموالين لها [6] ويبدو أن حصول السيد علي الميرغني على راتب

---

١) انظر طائفة الختمية د/ جلي ٢٧ .

٢) السابق ٢٧ ، ٢٨ وقد نقل ذلك من The sudan under wingate . p . ٩٩

٣) انظر السودان عبر القرون ــ مكي شبيكة ٤٨١ دار الثقافة بيروت لبنان ط ٣/ د.ت .

٤) طائفة الختمية د/ جلي ٢٨ .

٥) السابق ٣١ .

٦) طائفة الختمية ٣٠ ، ٣١ .

شهري من الإنجليز هو وأخوه أحمد كان موجوداً من قبلهما لمحمد الختم الميرغني [١] والميرغني الأدريسي في عسير [٢] .

ويرى الأستاذ محمد أحمد خير أن السيد علي الميرغني كان على العكس من ذلك تماماً . فالرجل كان وطنياً محباً لبلاده . وكان يبغض الإنجليز . ويواجههم . وكان مسدسه لا يفارقه [٣] وأنه كان يرفض السلطة الإنجليزية الحاكمة [٤] ويرى أنه لولا جهاد السيد علي الميرغني ما نالت السودان استقلالها [٥] وكان بودي أن يذكر الأستاذ محمد أحمد خير للسيد علي الميرغني وأتباعه من طائفة الختمية موقفاً جهادياً واحداً يحمل فيه السلاح ويجاهد الإنجليز . ولكني لم أجد ذلك وعلمت أنها مجامله المحب الذي يتغاضى عن عيوب من يحب . وبالقراءة المتأنية وجدت أن الرجل لا يحب الختمية لذاتها . وإنما لصلتها بالشيعة [٦] . أو على الأقل بأئمتهم الاثني عشرية والمعاصرين من الختمية يتبنون بعض مقولات الشيعة في الإمامة وأهل البيت ... بل إن هناك محاولة لدى بعض الختمية المعاصرين للربط بين الطائفتين في التوجه والمستقبل والمصير[٧] وقد اعترف محمد أحمد خير بأن الختمية ينتسبون إلى الأئمة الاثني عشرية فقال بعد أن ذكر النسب " وكما هو واضح من النسب أعلاه

---

١) هو محمد سر الختم بن السيد محمد سر الختم بن السيد محمد عثمان الختم هاجر من الحجاز إلى مصر وعمل على نشر الطريقة هناك قدم سواكن ليعضد الحملة على عثمان بن وقفه ــ توفى بالقاهرة ١٣٣٤هــ . انظر الختمية محمد أحمد خير ٤٤ ، ٤٥ وطائفة الختمية د/ جلي ٢٣ هامش ٢ .

٢) كان هو وخاله خلفاء للميرغني الكبير في الجزيرة العربية . وكثير من الكتب التي تناهض التصوف وتشنع عليه فهي لا تذكر ذلك . فلماذا ؟ انظر الطرق الصوفية في مصر زكريا بيومي ١٠٩ والختمية محمد أحمد خير ٤٠ .

٣) انظر الختمية محمد أحمد خير ٩٨ / ٩٩ .

٤) السابق ٩٧ .

٥) السابق ٧٠ .

٦) راجع في ذلك الفصل الرابع من طائفة الختمية د/ جلي من ١٤١ ــ ١٦٧ .

٧) السابق ١٤١ .

فإن السادة المراغية ينتسبون إلى الأئمة الاثني عشرية . عظماء الأمة المحمدية . ووارثي علوم المصطفى . وباب مدينة العلم . علي وشهرتهم تغني عن التعريف بهم . فقد كانوا أقمار السماوات ونجوم الأراضين [1] .

فالأستاذ محمد أحمد خير ختمي معاصر وشيعي أيضاً . ولذلك جاء كتابه بتعداد مناقب الختمية ومآثرهم وأغمض الطرف عن عيوبهم ومثالبهم

وهذا كما يقول الشافعي :

وعين الرضا عن كل عيب كليلـــــة

كما أن عين السخط تبدي المساوئ

وهذا ليس منهجاً علمياً ــ أما الشيعة . فكتابه طافح بذلك وحسبنا أن نذكر بعض النصوص لتأكيد ذلك . من ذلك ثناؤه علي الخميني وقوله عنه "إنه إمام عظيم من أئمة آل البيت " [2] ويبشر بأن البعث القادم سيكون على يد الشيعة فيقول " إن البعث القادم لن يكون إلا على أيدينا " [3] ويشاركني في هذا الرأي د/ جلي . وهذا ما انتهى إليه في بحثه عن الختمية [4]

وقد أفرزت الطرق الصوفية في السودان أحزاباً مختلفة كانت امتداداً لمبادئها وأفكارها . فكان فيها حزب الأمة . والحزب الوطني الاتحادي الديمقراطي . والأول يمثل الطريقة المهدية . والثاني يمثل الطريقة الختمية

وكان الأولى والأجدر بالمهدية أن تسير علي نهج المهدي الذي حرر السودان من المستعمرين وأعاد لها عزتها وكرامتها ولكنهم للأسف شاركوا الختمية في وضع أيديهما في يد الصليبي الحاقد الهالك " جون جرنك " والهجوم على دولة السودان

---

١) انظر الختمية ــ العقيدة والتاريخ والمنهج محمد أحمد خير ٣٢ .

٢) الختمية محمد أحمد خير ١٢٧ .

٣) السابق ١٢٨ .

٤) انظر طائفة الختمية د/ جلي ١٦٧ ــ ١٧٠ .

. ولا نشك في مدى معرفتهما بخطورة ما يفعلان ــ وهما اليوم مخلب قط في يد العدو الصليبي يحاربان أخوانهم في الدين [١] .

إن هذه النماذج ترينا كيف استغل الاستعمار الطرق الصوفية لصالحه ومصالحه ولولا استعدادهم وتهيئتهم لذلك ما قبلوا فسياسة المستعمر وجدت استعداداً وقبولاً تدل على مدى إنسياق الطرقية وانقيادهم بدون فهم ولا وعي . وذلك دليل على غياب معنى الولاء والبراء والموالاة والمعاداة الذي يعتبر من صميم العقيدة الإسلامية .

ولا ينبغي أن يقال إن هؤلاء أدعياء الصوفية ــ كلا ــ فليس فيهم من دعة إلا الشيخ الجيلاني ــ عبد السلام اليوسفي ــ والملقب بأبي حمارة [١]. أما البقية فإنهم من أصحاب الطرق الصوفية الكبرى المعروفة والمشهورة.

إن التاريخ سطر في صفحاته تلك الصفات ــ من العمالة ــ والخيانة والتجسس والتي صارت نقطه سوداء في جبين الطرقية ــ كما صارت دلالة على مدى انحرافها عن مسيرة الجهاد والمقاومة في فترة من أحلك الفترات في تاريخ الأمة الإسلامية .

وعلى الذين يؤيدون الطرق الصوفية مطلقاً دون نظر إلى هذه الخلفيات التاريخية السوداء أن يعيدوا النظر مرة أخرى . ليعلموا الحق ويدركوا الحقائق ويفهموا الأمور على وجهها الصحيح . وإن المجاملات التي تغمض العيون عن المسالب والمساوئ لا تصمد أمام الأدلة العلمية والحقائق التاريخية .

---

١) انظر ما وراء التحالف المشبوه مقال افتتاحية مجلة البيان التي تصدر عن المنتدى الإسلامي بلندن ص ٤ مجلة البيان ع ١١١ ذو القعدة ١٤١٧هـ .

(١) انظر أعلام المغرب العربي ــ عبد الوهاب بن منصور ج ٣٠٢/١ .

المبحث الرابع

"التقويم"

من خلال هذه الدراسة التي قدمناها عن موقف الطرق الصوفية من الجهاد في العصر الحديث نجد أنها متباينة . فهناك الطرق الصوفية التي جاهدت المستعمر وقاومته . وهناك الطرق الصوفية التي عاونت المستعمر وساعدته . وهناك ثالثة قاومت فترة من الزمن ثم نكصت وتوقفت .

والإنصاف في الحكم يقتضي أن لا نجمع الطرق الصوفية في سلة واحدة فنقبلها مطلقاً أو نردها مطلقاً — بل ينبغي العدل . فنأخذ ما عندهم من حق ونرفض ما عندهم من باطل . وهذا هو المنهج الوسط والمعتدل . منهج القرآن . يقول تعالى ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾ [١] ويقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [٢] وقد أمرنا بالعدل والإنصاف مع من نحب ومن نكره من العدو والصديق . مع البعيد والقريب . يقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً {١٣٥}﴾ [٣]

والمشكلة تكمن أساساً عندما تحدث الخلافات وتثور العداوات . يصبح كثير من الناس عاجزاً عن الأبصار بعينه . فلا يرى إلا المثالب والمساوئ وعندما تهب رياح المودة فإن كثيراً من الناس أيضاً لا ينظرون إلا بعين الرضا . وقد أشار الشافعي إلى ذلك فقال :

وعين الرضا عن كل عيب كليلـــة
ولكن عين الســخط تبدي المساوئ[٤]

---

١) النساء آية ٥٨ .

٢) النحل آية ٩٠ .

٣) النساء آية ١٣٥ .

٤) انظر ديوان الإمام الشافعي ١٦٥ تحقيق د/ إميل بديع يعقوب دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط ٢/١٤٢٤هـ — ٢٠٠٤م وديوان الشافعي ١٢٧ ت د/محمد عبد المنعم الخفاجي دار ابن زيدون —

ومن هنا جاءت دعوة شعيب عليه السلام واضحة صريحة للتخلص من هذه النقيصة حين نصح قومه " ويا قوم أوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين "[١]... "[٢]

يقول أحد الباحثين " تنوعت الطرق الصوفية وتعددت الاجتهادات واختلط الحابل بالنابل كما يقولون . وأمسى التفريق صعباً على طلاب العلم في بدء سيرهم العلمي وبات التعامل معهم على ثلاثة أحوال :

الأول : الاعتقاد أنهم على الصواب وأنهم على وراثة النبوة . وأنهم أفضل الخلق .

الثاني : الاعتقاد أنهم على ضلال ويجب محاربتهم وفضح عوارهم ونبذ كل شيء منهم .. وفي بعض الأحيان : إخراج كل التصوف عن أهل السنة والجماعة ...

الثالث : الاعتدال في الحكم ومجانبة التعميم وأخذ أحسن ما عندهم ورد ما فيهم من مخالفات .

والحق هو المذهب الثالث . يقول ابن تيمية " والصواب إنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله . ففيهم السابق المقرب بحسن اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين . وفي كل من الصنفين من قد

ومكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة كما ورد منسوباً إلى عبد الله ابن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ١٢/٢٥٠ تحقيق عبد الأمير على مهنا وسمير يوسف جابر دار الفكر بيروت لبنان .

١) هود آية ٨٥ .

http : ll ٢) انظر الصوفية بين الفهم والتعامل د/ عبد الحميد الكبتي ٢ بحث على شبكة الإنترنت ٢ www jeel , libya

يجتهد فيخطئ . وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب . ومن المنتسبين اليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه [1] .

ويقول ابن القيم في المدارج عما يقع من شطحات وانحرافات لدي بعض المتصوفة " هذه الشطحات أوجبت فتنة علي طائفتين من الناس .

إحداهما : حجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ولطف نفوسهم وصدق معاملتهم فأهدروها لأجل هذه الشطحات . وأنكروها غاية الإنكار . وأساؤا الظن بهم مطلقاً . وهذا عدوان وإسراف . فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات . والحكم وتعطلت معالمها .

والطائفة الثانية : حجبوا بما رأوه من محاسن القوم وصفاء قلوبهم وصحة عزائمهم وحسن معاملتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ونقصانها . فسحبوا عليها ذيل المحاسن واجروا عليها حكم القبول والانتصار لها واستظهروا بها في سلوكهم وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون .

والطائفة الثالثة : وهم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا لكل ذي حق حقه . وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته . فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ولا المعلول السقيم بحكم الصحيح . بل قبلوا ما يقبل وردوا ما يرد [2]

ويقول " النصير الصادق " يضرب في كل غنيمة بسهم ويعاشر كل طائفة علي أحسن ما معها [3] "

فقد عد الإمام ابن القيم كلا طرفي النظر للمتصوفة من المعتدين المفرطين . وأخذ المنهج الوسط . وكان منهجه الوسطي هذا وافياً في كتابه المدارج الذي

---

١) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ١١/١٨ مكتبة المعارف الرباط المغرب .

٢) انظر مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم الجوزية ج ٢/٤١ دار الحديث القاهرة . والتصوف بين الأفراط والتفريط د/ عمر عبد الله كامل ٣٢ ، ٣٣ دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ط ١٤٢٢/١هـ ـــ ٢٠٠١م .

٣) انظر الصوفية وموضوعية الفهم والتعامل د/عبد الحميد الكثي ٥ ، ٦ مقال على شبكة الإنترنت.

شرح منازل الهروي ت ٤٨١ هـ . حتى أنه كان يردد عبارات معروفة عند الصوفية . ويكررها لأن معناها صحيح غير مخالف للشرع . ويتضح ذلك لمن درس الكتاب .

وليت الذين رموا الطرق الصوفية بكل نقيصة وجردوهم من كل منقبة أن يتأملوا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ــ وهما من رواد المدرسة السلفية التي تتسم بالأنصاف في القول والسداد في الرأي والعدل في الحكم ومن أمثال المجردين المعاصرين . الشيخ عبد الرحمن الوكيل الذي يقول أروني صوفياً واحداً قاتل في سبيل الله ؟ أروني صوفياً واحداً جالد الاستعمار ؟ أو كافحه أو دعا إلى ذلك ؟ [1] والشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في قوله " إن الطرق الصوفية التي كونتها الدولة الفاطمية كانت سبباً في تمكين الجيوش الصليبية من أرض الإسلام"[2] والشيخ محمد جميل غازي في قوله " إن التصوف من اختراع المستعمرين .. ومن ركائز الاستعمار " [3]

والشيخ محمد حامد الفقي في تعليقاته على مدارج السالكين بأجزائه الثلاثة والشيخ شقفة السوري في قوله " كان كثير من الصوفية يسيرون دائماً في ركاب الحكام الظلمة والمستعمرين المغتصبين . فلا يهمهم أمر شعوبهم مادامت قدورهم مملوءة بما لذ وطاب من الأطعمة وخزائنهم تزخر بالمال يغدقه عليهم المستبدون والمستعمرون . ليكونوا مطية لهم . ويصبحوا فريسة سهلة الابتلاع [4]

---

١) انظر هذه هي الصوفية الشيخ عبد الرحمن الوكيل ٢٠٠ دار اللواء . الرياض السعودية ط ٥ ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م .

٢) انظر الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ٥٢ دار الحرمين للطباعة ــ القاهرة ط ٤/ ١٤١٠هـ ــ ١٩٨٩م .

٣) انظر الصوفية من الوجه الآخر د/ محمد جميل غازي ٢ ــ ١ ــ ١١١ إعداد عبد المنعم الجداوي ــ المطبعة الفنية بالقاهرة .

٤) انظر التصوف بين الحق والخلق الشيخ محمد فهر شقفة ٢١٠ الدار السلفية ط ٣/سنة ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م .

وقد أخذت بعض البلاد بهذا المنهج فقدحوا في الطرق الصوفية وذموها ولم يرو لها حسنات بل كلها سيئات وشطحات ولم يستثني من ذلك إلا فئة قليلة منصفة [1] والذي دعانا لهذا القول . هو تسجيل التباين في الموقفين والاختلاف بين الرأيين " المتقدمين والمتأخرين " .

وفي المقابل نجد الذين يؤيدون الطرق الصوفية على طول الخط دون نظر إلى أخطائهم ومساليهم . من أمثال الأستاذ أسعد الخطيب السوري وعضو اتحاد المؤرخين العرب . والذي يرى أن الصوفية استطاعت الجمع بين الجهاد القتالي وجهاد النفس [2] ولم يذكر في كتابه " البطولة والفداء عند الصوفية أو في بحثه الذي اختصره وسماه " الإطار الدفاعي عند الصوفية أي سلبيات لهم على الإطلاق ــ وكذلك فضيلة الدكتور / عبد الحليم محمود ــ الذي يرى أن الصوفية هم الذين حققوا الجهاد الإسلامي على مر التاريخ [3] .

إن هذا الحكم المطلق فيه نظر . وقد تقدمت نماذج كثيرة عاونت المستعمر وساعدته . وسجل عملهم التاريخ مواقف كانت في غاية العمالة والخيانة .

والشيخ محمد ماضي أبو العزايم والشيخ الغنيمي التفتازاني وابنه د/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني وغيرهم .

والإنصاف في موقف الطرق الصوفية من الجهاد في العصر الحديث . أن نقبل ما عندهم من حق ونرفض ما عندهم من باطل ــ ونثني على جوانب الخير وندعمها ونذم جوانب الشر وننددها . وتطبيقاً لهذا المنهج في الحكم نقول : إن الطرق الصوفية في موقفها من الجهاد في العصر الحديث كانت على ثلاثة طوائف :

١ ــ **الطائفة الأولى** : وهي التي أعلنت الجهاد وقاومت الاستعمار وأقضت مضاجع المستعمرين فترة طويلة من الزمن . في ليبيا بقيادة شيخ المجاهدين

---

١) انظر حوار عبد الله بن محمد الرشيد مع الشيخ عبد العزيز القارى . الصوفية لم ينصف بتاريخ ١٤٢٦/٢/٣٠هـ الموافق ٢٠٠٥/٤/٩م مقال على شبكة الإنترنت .

٢) انظر الإطار الدفاعي عند الصوفية أسعد الخطيب ٧٩ ــ ١٠١ .

٣) انظر مقدمة وتعليق د/ عبد الحليم محمود على المنقذ من الضلال للإمام الغزالي ١٤ ــ ١٧ .

عمر المختار . وفي الجزائر بقيادة أميرها القائد عبد القادر الجزائري . وفي المغرب بقيادة الأمير عبد الكريم الخطابي . وفي السودان بقيادة الشيخ محمد أحمد المهدي . وفي الصومال بقيادة الشيخ محمد عبد الله حسن . وفي موريتانيا بقيادة الشيخ ماء العينين . وغير ذلك من الحركات التحريرية الصوفية التي جاهدت المستعمر وقاومته حتى نالت حريتها وحصلت على استقلالها .

وهذه الحركات تنتمي في أصلها إلى طرق صوفية مختلفة كالشاذلية والقادرية والتيجانية وغيرها . وهذه الطرق الرئيسية قد تفرع منها طرق أخرى . كان لها هي الأخرى دور في الجهاد لا ينسى .

وهذه الطرق قد فهمت آيات الجهاد كما ينبغي بلا تأويل ولا تعطيل . وما ينسب إليهم من دعوة الخمول والكسل والسلم والمسالمة المطلقة والدعة والسكون ليس صحيحاً . والأولى أن يطلق عليهم الصوفية المجاهدة أو المقاتلة [1] .

فدعوى أننا لم نر للصوفية جهاداً ولم نقرأ لهم استشهاداً باطلة وقد تزعمها بعض المستشرقين وتلقفها قادة الغرب واستغلوها استغلالاً سيئاً . وللأسف سايرهم في إشاعة هذا المعنى بعض الباحثين العرب المحدثين . وصار ذلك هو الفهم السائد لدى الكثيرين [2] . وهذا شأن المستشرقين دائماً إن وجدوا حسنة أخفوها وإن ظفروا بهفوة أشاعوها ونشروها . ومن أبرز نتائج هذه الطائفة المجاهدة :

أ ـ حركة التحرير والاستقلال التي ظهرت في معظم البلاد العربية .

ويكفي أن تعلم أن ليبيا والجزائر والمغرب والسودان وغيرهم من الدول لم تحصل على استقلالها إلا بفضل مقاومة الطرق الصوفية والمعارك التي خاضتها ضد المستعمرين . ومما يؤسف له أن معظم كتب التاريخ في العصر الحديث والتي تأثرت بالاستشراق من ناحية والاستعمار من ناحية أخرى ـ لا تهتم إلا بالجانب السياسي

---

١) انظر الصوفية المقاتلة مقال الأستاذ / عماد حسين ١ ـ ٣ Esbw an luie

٢) انظر الإطار الثقافي عند الصوفية محمد خطيب ٧٨ .

وما يحدثه القادة من انتصارات أو انهزامات دون التفات إلى الجانب الديني . أو الروحي على وجه الدقة .

أما هؤلاء القادة من الصوفية فقد جمعوا بين السياسة والدين . ولم يفصلوا بينهما . كما يفعل البعض اليوم . وقادتنا اليوم في حاجة إلى الجمع بين الأمرين .

ب ـــ لم يقف أمر هذه الطائفة عند التحرير والاستقلال بل استطاعت أن تنشأ مجتمعاً ويقيم دولاً . يقول الدكتور / عبد الله عبد الرازق " وصل الأمر ببعض الطرق الصوفية إلى حد السعي لتقلد السلطة السياسية مثل الطريقة السنوسية في ليبيا . والطريقة القادرية في دولة سكوتوا ممثلة في الشيخ عثمان بن فودي . وذريته الذين أسسوا دولة إسلامية في شمال نيجيريا . وظلت تمارس الطريقة القادرية لأكثر من قرن من الزمان . وأيضاً نجد ذلك في الطريقة التيجانية عندما أسس الحاج عمر الفوتي التكروري إمبراطورية كبرى في غرب القارة وطبق فيها أسس الطريقة التيجانية [1] .

جـــ إن مقاومة هذه الطائفة فضحت الدول الأوربية وكشفت عن أطماعها وأحقادها وضراوتها التي لا تنتهي . والاستعمار هو الوجه القبيح الكالح لهذه الدول مهما حاولوا تجميله وتزيينه بأمور وهمية لإخفاء حقيقته . فإن التاريخ لا ينسى ما فعلوه بالإسلام والمسلمين . وخاصة في العصر الحديث . ومازالت خطط هذه الدول قائمة ومؤامراتهم سارية . والواقع المشاهد خير دليل . وكان التاريخ يعيد نفسه . فما أشبه الليلة بالبارحة .

٢ــ **الطائفة الثانية** : وهي التي رفضت الجهاد ونكصت عن القتال . وانضمت إلى المستعمر ووقفت بجانبه منذ البداية جنبا إلى جنب مؤازرة ومناصرة وتقاتل في صفوفه وتحت رايته . بل وتدعوا الناس إلى الرضوخ لها . وتحذر من مغبة المقاومة . فقد انتشرت في المغرب أبان فترة المجاهد الكبير محمد بن عبد الكريم الخطابي . فتوى تقول بتحريم الجهاد ومقاومة المستعمر . ولاشك إن

---

١) انظر الطرق الصوفية في القارة الأفريقية د/ عبد الله عبد الرازق إبراهيم ٢٦ .

إشاعة هذه الفتوى من شأنها أن تخدر مشاعر الجمهور وتقضي على روح الجهاد والمقاومة في وقت أحوج ما تكون فيه الأمة إلى وحدة الصف وجمع الكلمة والوقوف يداً واحدة في وجه المستعمر . ومثلها أيضاً الفتوى أذاعت في الجزائر أبان فترة جهاد الأمير عبد القادر الجزائري . والتي تجعل الجهاد ضد الفرنسيين من باب القاء النفس إلى التهلكة وإن جهاد الأمير غير مشروع فلا تجب متابعته والسير تحت لوائه [1] .

وهذه الطائفة من أخطر الطوائف وذلك لما يأتي :

أ ــ أنها عطلت شريعة الجهاد وأولته بالجهاد النفسي كما تقدم . وتعطيل الجهاد سبب لوقوع الذل وحصول العذاب وحدوث الاستبدال . قال تعالى "إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير " [2] وأخبر النبي ﷺ أنه ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا يقول " لئن تركتم الجهاد وأخذتم أذناب البقر وتبايعتم بالعينة ليلزمنكم الله مذلة في قلوبكم لاتنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا إلى ما كنتم عليه [3]

وصدق رسول الله ﷺ فإن الطرقية اغتروا بالكفار فأذلهم الله . فسقطوا أمام أنفسهم قبل أن يسقطوا أمام أعدائهم . وسيظل هذاالذل ملازماً لهم لا ينزع عنهم ما لم يتوبوا ويرجعوا عن ذلك .

والطرقية في موالاتهم للكفار وتعطيلهم للجهاد مبتدعون مخطئون ــ مخالفون لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ [4] ويخشى عليهم من الكفره إذا كانت موالاتهم عن عمد باختيارات عقلية وقناعات قلبية . أما إذا كانت بسبب خوف أو تقيه

---

١) انظر الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية . ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية ج ٢٤٩/١ من إصدار إدارة الملك عبد العزيز الرياض السعودية .

٢) التوبة آية ٣٩ .

٣) انظر الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام احمد الشيباني . الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ج ٤٤/١٥ . نشر دار الحديث . وقال البنا سنده جيد .

٤) انظر أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه د/ علي بن نفيع العلياني ٤٧٧ .

وخلافهما مع سلامة القلب فلا [1] . فالمسألة مردها إلى القلوب ولا يعلم ما فيها إلا خالقها . ولذلك لا تقطع بالكفر ـ إلا إذا تحققت شروطه وانتفت موانعة.

ب ـ أنها أخرت الحصول على الاستقلال وعرقلة مسيرة الإصلاح والتقدم والتنمية والوقوف حجر عثرة أمام حركات الإصلاحيين . من أمثال الأمير عبد الكريم الخطابي في المغرب . وعبد القادر الجزائري . وعبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي في الجزائر وغيرهم .

فإذا كان الاصلاحيون يعملون على الإصلاح فإن الطرقية يعملون على الإفساد . وإذا كان الاصلاحيون يقولون بالمجاهدة . فإن الطرقية يقولون بالمهادنة .

وإذا كان الاصلاحيون يقولون بالمقاومة فإن الطرقية يقولون بالمعاونة

فمن الطبيعي أن يحدث النزاع بين الجماعتين والصراع بين الفريقين . وكل فريق يحاول أن ينتصر لنفسه ومبادئه . وهذا من شأنه أن يضعف الأمة الإسلامية ويشتت شملها ويفرق جمعها . ولا يستفيد من ذلك إلا المستعمر الغازي . وسبب ذلك الجهل الأعمى والتعصب البغيض . بالإضافة إلى اختلاف الطرق في مداركها . وتنوع أورادها وتعدد انتمائها . يقول الدكتور / عبد الله عبد الرازق إبراهيم في هذا المعنى " إن هذه الطرق الصوفية بسبب اختلاف مداركها وتنوع أورادها وتعدد انتمائها لم تحاول تكوين جبهة واحدة ضد العدو الأجنبي . ووجدنا في كثير من مناطق القارة الأفريقية تنافساً بين هذه الطرق وصل إلى حد التعاون مع القوى الوثنية ضد حركات الجهاد الإسلامية " [2] .

ويقول أيضاً " ورفض زعماء الطرق الصوفية الانضمام إلى بني وطنهم لتكوين جبهة إسلامية واحدة ضد هذا المعتدي . ولعل خير دليل على هذا العمل قيام الطريقة التيجانية في الجزائر بالتحالف مع القوى الفرنسية ضد الأمير عبد القادر الجزائري . واضطر الأمير إلى الدخول في صراعات مع زعماء التيجانية . وهذا أمر

---

١) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ج١/٣١٤ دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .

٢) انظر الطرق الصوفية في القارة الأفريقية ٢٣٠ .

مؤسف بل وعمل لا يليق بالزعامات الإسلامية التي هي أحوج ما تكون إلى التكاتف ضد هذه القوى الأوربية . وحدث نفس الشيء عندما تحالفت القوى الإسلامية من الطريقة القادرية ضد الحاج عمر الفوتي التكروري في منطقة ماسينا بل وحاصرت قوات أحمد البكاري القادري قوات الحاج عمر الذي اضطر لخوض معركة حربية ضد المسلمين من أجل تخليص جيشه من هذا الحصار . وكانت النتيجة استشهاد هذا الزعيم الإسلامي على أيدي القوات الصوفية وليس على أيدي القوى الفرنسية . وهناك مواقف كثيرة عرضنا بعضاً منها في ثنايا الحديث عن الطرق الصوفية في أفريقيا . وكلها توضح أن بعض رجال الصوفية تحالف مع القوى الأجنبية حفاظاً على مكانته أمام منافسة الطرق الأخرى ، فكان هذا عاملاً أضعف المقاومة الإسلامية . وجعل الطرق تنافس بعضها بعضاً . مما أضعف من جهودها أمام التيارات الأوربية الوافدة ... [(١)]

ويضاف إلى ذلك معارضة الطريقة العلوية للشيخ ابن باديس باعث النهضة ومؤسس الحركة الإصلاحية في الجزائر ومؤامرتهم عليه والقتل والاغتيال [(٢)] كما حدث ذلك لصديقه ورفيق دربه الشيخ البشير الإبراهيمي [(٣)] .

جـ ـ إنها حولت مسيرة الطرق الصوفية عن مسارها الصحيح . وأصبح ذلك ثلمة في تاريخها بالإضافة إلى المخالفات العقدية التي وقعت فيها من بدع وخرافات كان سبباً مباشراً في الطعن فيها والنيل من أصحابها .

ويرى الشيخ أبو الحسن الندوي أن هذه الطائفة قليلة في مقابل الأكثرية المقاتلة والمجاهدة فيقول بعد أن ذكر جملة من شهادات القوم قديماً وحديثاً " إن هذه الشهادات متواترة على جهاد القوم للأعداء . وإن كان هناك أدعياء ينتسبون إلى

---

١) الطرق الصوفية د/ عبد الله عبد الرازق إبراهيم ٢٣٠ ، ٢٣٢ .

٢) انظر ابن باديس حياته وآثاره ج٣/١٥٣ والعلويون واغتيال ابن باديس مقال على شبكة الإنترنت
Es lon anbu

٣) راجع في ذلك البحث القيم الذي كتبه د/ محمد زوهان بعنوان موقف الإبراهيمي من الطرق الصوفية المنحرفة في الجزائر مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ٣٠٠ إلى ٣٥٧ ع ٤٥ ربيع الأول ١٤٢٢هـ ـ يونيو ٢٠٠١م الكويت ..

الطريقة فيقابلهم عدد أكثر من أئمة التصوف وشيوخ الطريقة الذين فاقوا هؤلاء المتسببون وامتازوا عنهم في الكفاح والجهاد والقتال والنضال والبقاء في معترك الحياة " [1]

كما يرى أيضاً أن هذه القله ـ قلة شاذة لا تأخذ حكم الجمع [2] .

وكلام الشيخ الندوي رحمه الله وإن كان مقبولاً في هذه الإحصائية ـ قلة معاونة في مقابل كثرة مجاهدة . والتي نجهل مصدرها . ولا ندري من أين استقاها وحكم بها إلا أننا نقول . إن هذه القلة ليست من الأدعياء كما يرى الشيخ ـ فقد أثرت هذه القلة تأثيراً سلبياً ظهر صداه في المجتمعات التي منيت بها وبأفعالها .

٣ ـ **الطائفة الثالثة** : وهي التي قطعت شوطاً كبيراً في جهاد الأعداء ومقاومة المستعمر . ثم نكلت ونكصت وتوقفت . ويمثل هذه الطائفة الأمير عبد القادر الجزائري ومن معه . فقد جاهد هذا الأمير ضد الفرنسيين سبعة عشر عاماً [3] ولكنه استسلم في آخر الأمر وسلم نفسه لهم فنفوه إلى خارج البلاد . واستطاعوا إغراءه بالمال والسيطرة . فرتبوا له راتبا شهرياً يأخذه كل عام وظل الأمر على ذلك حتى توفي في دمشق [4] كما تقدم .

وإذا أردنا تقويم حياة الأمير فإننا نقسمها إلى مرحلتين ـ وهذا هو المنهج السديد والقول الرشيد في الحكم على الشخصية لأن لكل مرحلة ما يناسبها من الأحكام .

أ ـ **المرحلة الأولى** : وهي مرحلة الجهاد والمقاومة والاستسلام . والجهاد كما هو ثابت مشروع . وكذلك الاستسلام إذا كان لحكمة أو مصلحة واقتضته

---

١) انظر ربانية لا رهبانية الشيخ أبو الحسن الندوي ١٣٥ ، ١٣٦ الناشر دار الفتح للطباعة والنشر بيروت لبنان ط ١٣٨٨/٢هـ ـ ١٩٦٩م .

٢) السابق ١٣٦ .

٣) انظر حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر الشيخ عبد الرازق البيطار ج٢/٨٩٢ .

٤) انظر الأعلام للزركلي ج ٤/٤٦ .

الظروف والأحوال .. وكان في مواصلة الجهاد هلاك للأمة وقضاء عليها . ولذلك اشترط الأمير شروطاً للاستسلام رضي بها الفرنسيون . كما يقول الزركلي [1] ولو استرجعنا الحالة الراهنة التي استسلم فيها الأمير لأيقنا بأنها ضرورة إضطر إليها . فاسبانيا وفرنسا تكالبتا عليه . والدولة العثمانية التي لها حق السيادة ميئوس منها وسلطان المغرب الأقصى عاجز [2] وخائن انضم إلى معسكر الأعداء نكاية في الأمير [3] ويضاف إلى ذلك خيانة بعض قرى الريف . ومحاربة الطرق الصوفية ووقوفها في وجهه . مع ضعف المدد ونفاذ العدة . لذلك اعتبر مواصلة الجهاد انتحاراً [4]

وجنح للاستسلام . فاختار أهون الشرين وارتكب أخف الضررين . ولو كان غيره مكانه لما فعل أكثر مما فعل . يقول الشيخ عبد الرزاق البيطار في اضطرار الأمير " فاضطر حضرة الأمير إلى التسليم للفرنسيس . بعد المشاورة مع وكلائه ووزرائه حيث سدت المناهج والمسالك . وعز الخلاص ولات حين مناص .

إذا لم تكن إلا الأسنةُ مركبا   فما حيلة المضطر إلا ركوبها [5]

فجهاد هذه المرحلة مشروع والاستسلام مشروع أيضا .

ب ــ المرحلة الثانية : ما بعد الاستسلام وبالتحديد من سنة ١٨٤٧م [6] وهي مرحلة الولاء للفرنسيين ومعارضة الجهاد والمجاهدين في الجزائر . أو هي مرحلة التحول من الضد إلى الضد حيث ارتمى في أحضان فرنسا وعاش في باريس . وتزيا بنيشانها . وأكل من خيراتها . وتقاضى راتبا شهريا من حكامها .

---

١) انظر الأعلام للزركلي ج ٢٦/٤ .

٢) انظر حلية البشر للشيخ عبد الرزاق البيطار ج ٨٨٨/٢ .

٣) السابق ج ٨٩٢/٢ .

٤) انظر حاضر العالم الإسلامي ج ١٩٠/٣ .

٥) حلية البشر ج ٨٩٢/٢ .

٦) الإسلام وحركات التحرير العربية ٧٣ .

والأدلة على ولائه . أنه حين انهزمت فرنسا سنة ١٨٧٠م . أظهر كمال الأسى والحزن وتخلى عن ملاقاة الناس مدة [١] وفسر ذلك السنوسي أنه من باب الوفاء لفرنسا [٢] وحين قام ابنه محي الدين بإعلان الجهاد ضد فرنسا . تبرأ منه الأمير وكان ذلك سبباً في انفضاض القبائل وفشل حركته [٣] . ثم قارن ذلك بالفتوى التي أصدرها الأمير في مرحلة جهاده واعتباره كل من يساعد فرنسا مرتداً عن دينه [٤] .

لترى الهوة السحيقة والمنحدر الخطير الذي آل إليه الأمير .

والسؤال هنا : هل كان الأمير مضطراً إلى ذلك كما كان في المرحلة الأولى وكما يقول عنه تلميذه الشيخ البيطار الذي يلتمس له الأعذار في كل أموره وتصرفاته التي تخالف العقيدة ؟ إن هذا التفسير مقبول في فترة إقامته الجبرية في باريس حيث كان منفياً هناك . أما بعد ذلك فقد أصبح الأمير حراً طليقاً . وكان بسبب تدخل السلطان العثماني عبد المجيد الذي شفع له عند فرنسا . ولذلك يقول تلميذه الشيخ البيطار " وأما حضرة أمير المؤمنين فإن ما أسداه إليه من كفالته عند فرنسا فإنها هي المنة التي لا تقابلها منة حيث إنه لولاها لم يتيسر له الخروج من بلاد فرنسا [٥] ولذلك زار الأمير بعد ذلك الأستانه ثم دمشق . وغيرهما . وكان بإمكانه أن ينتقل بين بلاد المسلمين ليكمل سيرله ومسيرته الجهادية فقد انتفى عنه الضعف والاستضعاف الذي عذر الله به المسلم في سورة النساء في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً {٩٧} إِلاَّ

---

١) الرحلة الحجازية ج ٢٠٠/٣ .

٢) الانحرافات العقدية ج ٥٤٠/١ .

٣) راجع في ذلك الحلية ج ١٤٢٢/٣ والمغرب العربي ج ٢١٦/١ .

٤) الإسلام وحركات التحرير ٧١ .

٥) حلية البشر ج ٨٩٦/٢ .

الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً {٩٨} فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً {٩٩} ﴾ (١)

وكان بإمكان الأمير أن يفعل كما فعل غيره من قادة المجاهدين من أمثال عمر المختار أو يفعل كما فعل ولده محي الدين الذي رفض أن يكون من رعايا فرنسا هو وإخوته (٢) أو يفعل كما فعل الأمير عبد الكريم الخطابي .

نعم استسلم الأمير عبد الكريم في آخر حياته . ولكنه لم يذهب إلى أعدائه ولم يواليهم ولم يتقاضى راتباً شهرياً منهم فعاش كريماً ومات كريماً وتفسير السنوسي بأن هذا أمر طبيعي أو أنه من باب الوفاء لفرنسا غير مقبول . لأن للأمير مكانه ومكانته . وما يصدر من الأمير غيرُ ما يصدر من المأمور وما يصدر من الحاكم غير ما يصدر من المحكوم . وما يصدر من الراعي غير ما يصدر من الرعية فلكل شخص مكانته . والشيء الصغير إذ صدر من الكبير كان كبيراً وعظيماً . فأخطاء القادة ليست سهلة . لأنها تضيع أمماً وتفني دولاً . ولذلك تصلح الأمة بصلاحهم وتفسد بفسادهم . وحتى لو كان طبيعاً من غيره لا يكون طبيعياً منه .

إن هذا التحول من الأمير يدل على مدى غياب معنى الولاء والبراء العقدي الذي صاحبه لفترة طويلة من حياته . ثم اختفى في آخرها . ولذلك كان من الإنصاف في تقويمنا لهذه الشخصية أن نقول : إن المرحلة الأولى من تاريخ الأمير محسوبة له . والمرحلة الأخيرة من تاريخه محسوبة عليه وحكمنا هذا على ما ظهر لنا مما وقع بين أيدينا من المراجع والمصادر ولعلنا نقف في تضيل الأيام على ما يناقض ذلك ويكشف القناع بصورة أعمق تجلي وتوضح المراحل المختلفة لحياة هذا الأمير . فإن التاريخ لا يعرف الكلمة النهائية أو الأخيرة . فهناك كتب مطبوعة لم نقف عليها . ناهيك بالمخطوطات التي لم نرها . وقد أشار الشيخ البيطار إلى ذلك فقال "وتفصيل ذلك مذكور في كتاب مناقب المترجم من تأليف ولده المحترم سعادة محمد

---

١) النساء آية ٩٧ ، ٩٨ .

٢) حلية البشر ح ١٤٢٩/٣

باشا الذي سماه بالكوكب الزاهر في أخبار الأمير عبد القادر [1] ولم نقف على هذا الكتاب .

وربما كانت هناك كتب أخرى لم يعرفها الشيخ البيطار كتبت عن الأمير في حياته أو بعد مماته . ولذلك قيدنا تقويمنا لهذا الأمير بما وقع تحت أيدينا من المصادر والمراجع .

وأخيراً : فإن من مقتضيات التقويم ـــ تقويم الأتباع ـــ وهو الجمهور الكبير والقطاع العريض من الناس . في انقيادهم التام وطاعتهم الكاملة لمشايخ الطرق وأربابها وقد ربّى هؤلاء المشايخ الأتباع على السمع والطاعة . وعلموهم أن من آداب المريد مع الشيخ . الموافقة قبل المرافقة . وعدم الاعتراض . فإن من اعترض انطر وعليه أن يكون مع شيخه كالميت بين يدي المغسل .

وهذه العبارات تنبؤك بحال المريد مع الشيخ والتي لا تبقي رجلاً . ولا تنمى فيه الحرية والإرادة والاختيار ولذلك يقول الدكتور / عامر النجار وقد يفسر إطاعة المريد إطاعة عمياء بشيخه وإخباره بكل أحواله وأسراره بأن ذلك محواً لشخصية الفرد وضعفاً وانحلالاً لمقوماتها وقضاءاً على إرادته وحريته واختياره [2]

ويشبه الصوفية هذه الصلة وتلك العلاقة ـــ بصلة الطبيب بالمريض . والمرض داء نفسي دفين . فلا تجوز المقارنة بوسائل التربية الحديثة . وإنما بالمحلل النفسي . وفي العلاج النفسي تقوم مثل هذه العلاقة حين يسلم له المريض قياده ويطلعه على كل أسراره . ولا يقدم على أمر حتى يستأذنه . وكل ذلك لضرورة العلاج الذي يمتد سنين . ويستند كلا من النظامين إلى فكرة الإيحاء الفوري ... وتشابه الطريقتان كذلك إلى حتمية الثنائية الذي لا يتسنى العلاج إلا بوجود طرفين محلل ومريض ـــ أو شيخ ومريد ـــ كذلك يبدو التماثل شديداً إذا علمنا أن الصوفية

---

١) حلية البشر ج ٨٩٧/٢ .

٢) انظر الطرق الصوفية في مصر د/ عامر النجار ٢٦ .

كانوا على وعي بفكرة اللا شعور . واستحالة إدراك المريض إلى مكوناته مع ما له من أثر في السلوك [1]

فتأمل إلى أي مدى استطاع المشايخ وأرباب الطرق السيطرة على قلوب المريدين وعقولهم فكانوا لهم كما أرادوا . ولما تيقن المشايخ من ذلك صاروا يوجهون الأتباع إلى ما يريدون . من الموالاة والمعاداة — من الولاء والبراء للمستعمر . فكان الأتباع يلهبون إلى المعارك انقياداً للمشايخ وطاعة لهم . لانقياداً للشرع وأحكام الدين .

وقد يقال إن ذلك للعامة والدهماء لا المثقفين والخاصة . ونقول إن ذلك خارج إطار الطرقية . أما في داخلها فليس هناك . إلا شيخ ومريد أو طبيب ومريض كما تقدم . على أن الكثرة للدهماء والعامة . وهؤلاء يشبههم أحد الباحثين بأنهم كقطيع الأغنام فيقول " والجماهير كما يقول علم الاجتماع — كقطيع الأغنام . إذا وثبت الأولى على القناة وثب الجميع وإذا نفرت نفر الجميع فلا تلبث أن إيجاد بطانة الشيخ قد عمل فيما حولها . ثم ما حول ما حولها . فإذا شهرة كاذبة . وإذا عمل مبتدع إلى جانب عمل محرم . وإذا السنة تداس وإذا الشريعة تموت باسم الشريعة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم [2] .

وقد يقال إن هذا الكلام متوجه إلى أرباب الطرق والمشايخ الذين تعاونوا مع المستعمر فكانوا عملاء . خانوا دينهم وأمتهم . أما أرباب الطرق الذين قاوموه وجاهدوه فلا . ولكننا نقول إن الأتباع هنا . وإن كانت لهم إيجابيات محسوبة ومحدودة في هذه الجزئية فإن لهم سلبيات أخرى تكشف أيضاً عن مدى انقيادهم حتى في المقاومة .

---

١) انظر الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي د/ أحمد محمود صبحي ٢٤٨ دار المعرفة الجامعية الأسكندرية ٢٠٠٠م .

٢) التصوف بين الإفراط والتفريط د/ عمر عبد الله كامل ٢٦٥ دار ابن حزم بيروت لبنان ط ١/سنة ١٤٢٢هـ — ٢٠٠١م .

والخلاصة أن دفة المقاومة والمجاهدة والمساعدة والمعاونة كانت بأيدي المشايخ وأرباب الطرق . والأتباع كانوا في ذلك جبريين كالريشة في مهب الريح تحركها الريح كيفما شاءت . لما غرسوه فيهم من محق الطاعة والانقياد التي تورث الذلة والمهانة لا العزة والكرامة والشأن في المسلم أن يكون عزيزا لا ذليلا قال تعالى " ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المؤمنين لا يفقهون "[1] .

---

١) المنافقون آية ٧ .

الخاتمـــة

من خلال عرضنا لموضوع الطرق الصوفية وموقفها من الجهاد في العصر الحديث نستطيع أن نصل إلى النتائج التالية :

١ ـ لم تكن الطرق الصوفية موجودة في عصر النبي ﷺ ولا في عصر الصحابة ولا في عصر التابعين . وإنما ترجع بداياتها الأولى إلى نهاية القرن الثالث وأول الرابع الهجري وكانت عبارة عن آداب وأخلاق فردية يتميز بها السالك إلى الله تعالى ، ثم تطورت على مدى العصور والقرون حتى أصبحت جماعية لها نظم ورسوم وقواعد معينة يضعها المشايخ لمن معهم من المريدين . عن طريق العهد والبيعة على التوبة والاستقامة .

٢ ـ تتفق كلمة الفقهاء على أن الجهاد يراد به شرعاً . قتال المسلم للكافر غير المعاهد لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه . بعد دعوته إلى الإسلام وامتناعه عن قبوله ومحاربة الدعوة إليه . وحكمه دائر بين فرض الكفاية والعين بين الطلب والدفع تبعاً لاختلاف أحوال المسلمين قوة وضعفاً سلماً وحرباً .

٣ ـ عدم صحة الخبر الذي يرويه الصوفية " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " وبطلان الاحتجاج به . وإن كان جهاد النفس في أصله مشروعاً ومطلوباً لكنه إذا أطلق في مقابل جهاد الأعداء على معنى إغفاله وإهماله كان باطلاً . ولو ترك الصحابة والتابعون والقادة والحكام من بعدهم جهاد الأعداء واكتفوا بالجلوس في المساجد والرباطات والخلوات جهاداً للنفس والشهوات لما وصل إلينا الدين ولما عم نورة الآفاق . ثم إن هذا الجهاد إذا لم يثمر جهاد العدو كان بلا فائدة ولا يعد وإن يكون وقوفاً عند وسيلة لا توصل إلى غاية .

٤ ـ كثير من الطرق الصوفية جاهدت المستعمر في العصر الحديث وأظهرت بطولات نادرة سجلها لهم التاريخ بأحرف من نور . ولولا جهادهم لما نالت معظم البلاد الأفريقية حريتها وتمتعت باستقلالها وأثبتوا أن التصوف قوة

وبأس وجهاد ونضال لا تواكل وانعزال .. لا سلبية وانهزامية . كما يتهمهم بذلك البعض .

٥ ــ من الطرق الصوفية من كان على نقيض ذلك . فعاون المستعمر وساعده وسار في ركابه يأتمر بأمره وينتهي بنهيه فخان بذلك دينه ووطنه وأمته . وهذه النوعية من الطرق . شوهت تاريخ التصوف ولطخته بالعار وصارت سمة في جبينه وعلامة بارزة على تحول سيرته ومسيرته .

٦ ــ التحقيق العملي والتطبيق الفعلي لمعنى الولاء والبراء والموالاة والمعاداة للطرق الصوفية التي جاهدت المستعمر وقاومته ــ والتي عاونته وساعدته . ووجود هذا المعنى وعدمه . وقوته وضعفه هو أساس المجاهدة والمعاونة والمقاومة والمهادنة .

٧ ــ كان الجهل أحياناً والتعصب أحياناً أخرى من أسباب حدوث الصراع بين الطرق الصوفية بعضهم مع بعض . ففي الجزائر تصارعت القادرية مع التيجانية . وفي الصومال تصارعت القادرية بقيادة الشيخ البواري مع الصالحية بقيادة الشيخ محمد عبد الله حسن ــ القائد الصومالي المشهور . وكانت نتيجة هذا الصراع . القتل أحياناً . وإضعاف المقاومة أحيانا أخرى .

٨ ــ قامت الطرق الصوفية في العصر الحديث بأداء خدمات جليلة في المجال الاقتصادي فالتيجانية كانت لها أملاكها وأراضيها التي تمثل مصدراً كبيراً لدخلها . وكانت السنوسية هي الأخرى بما تملكه من زراعات وحرف . وما لديها من مزارع وصناع سبباً في حدوث القرار والاستقرار وبسط لواء الأمن حتى في أحلك فترات جهادها مع الإيطاليين .

٩ ــ أسدت الطرق الصوفية للدعوة الإسلامية في العصر الحديث كثيراً من الحسنات التي ربما تفوق سيئاتها . فقد وقفت أمام الوثنية في القارة الأفريقية سداً منيعاً من ناحية . وأمام التبشير المسيحي من ناحية أخرى . ولا تزال زوايا

الصوفية ومدن الرباط التي أنشأها زعماء هذه الطرق منارات للعلم والثقافة والمعرفة في كثير من الأصقاع البعيدة عن مراكز الدعوة الإسلامية .

١٠ ــ التريث في الأحكام والتثبت فيها . بلا محاباة أو مجافاة . فقد أمرنا الإسلام بالعدل والانصاف في الأحكام . وعلى المحبين أن ينظروا إلى الجانب السلبي في تاريخ الطرق الصوفية وعلى الكارهين أن ينظروا إلى الجانب الإيجابي في تاريخها أيضاً وبهذه النظرة تستقيم الأمور وتعتدل الموازين .

١١ ــ تأثير مشايخ الطرق الصوفية على الجمهور والعامة من الناس بسبب ما غرسوه في نفوسهم وقلوبهم من وجوب طاعتهم والتسليم لهم . على زعم انهم أدرى بأمورهم وأعلم بأحوالهم وهذه الطاعة ساعدت في المقاومة كما انها في الوقت ذاته أفسدت في المعاونة .

١٢ ــ تعتبر فترة العصر الحديث ــ الاستعمار ــ من أشد الفترات التاريخية التي مرت بها الطرق الصوفية ــ إذ هي المحك الحقيقي للتصوف الإيجابي والسلبي . وقد استطاع الاستعمار بخبثه ودهائه أن يجتذب بعض الطرق إلى جانبه ليكون عوناً له في القضاء على حركة الجهاد والمقاومة في كثير من البلاد الأفريقية .

١٣ ــ نجح الاستعمار في دراسة نفسية الطرق الصوفية وكيفية التعامل معها بما يناسبها . تارة بالمال . وتارة بالمنصب . وتارة بالرشوة . وتارة بالإعفاء من الضرائب والإتاوات . وتارة أخرى بالمصاهرات . والمصاهرة وإن كانت مشروعة لقوله تعالى : " والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن"[١] . إلا أنه من غير المشروع . بل من المخالفة والخيانة التعامل معهم والانضمام إلى معسكرهم نكاية في الإسلام والمسلمين .

١٤ ــ تمكنت الطرق الصوفية في العصر الحديث من تأسيس دول وإنشاء أمم لا تزال آثارها باقية إلى يومنا ــ مثل الطريقة السنوسية في ليبيا . والطريقة القادرية في دولة سوكوتو ممثلة في الشيخ عثمان بن فودي وذريته الذين أسسوا

---

١) المائدة آية (٥)

دولة إسلامية في شمال نيجيريا . ونجد ذلك أيضاً في الطريقة التيجانية عندما أسس الحاج الفوتي التكروري امبراطورية كبرى في غرب القارة الأفريقية وطبق فيها أسس الطريقة التيجانية .

١٥ ــ وأخيراً لا فلاح ولا نجاح لهذه الأمة إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسنه رسوله (ﷺ) وهدي السلف الصالح . واستمداد العقائد والأحكام ومناهج الحياة بكاملها من المصدر المعصوم . ونبذ المناهج البشرية المنحرفة التي جرت على امتنا النكبات والويلات . وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ثبت المراجع

ثبت بأهم المراجع التي اشتمل عليها البحث مرتبة على حسب ترتيب الحروف المجائية بعد كتاب الله عز وجل دون مراعاة ال في أول الكلمة .

" حرف الألف "

١ ـ آثار الحرب في الفقه الإسلامي د/ وهبة الزحيلي دار الفكر دمشق ط ٣/١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م .

٢ ـ آيات الجهاد في القرآن الكريم دراسة موضوعية وتاريخية وبيانية د/ كامل سلامة الدقس دار البيان الكويت .

٣ ـ ابن باديس حياته وآثاره ـ جمع ودراسة د/ عمار الطالبي دار الغرب الإسلامي ط ٢/١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

٤ ـ إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة د/ت .

٥ ـ الإسلام الطرقي . دارسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية د/ لطيفة الأخضر سراس للنشر والتوزيع . تونس . د/ت

٦ ـ الإسلام في القرن العشرين . الأستاذ عباس محمود العقاد . ضمن موسوعة عباس العقاد المكتبة العصرية .صيدا لبنان ط ١/١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٧ ـ الإسلام وحركات التحرير العربية د/ شوقي أبو خليل دار الرشيد ط ١ / ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م .

٨ ـ الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته د/ عبد الودود شلبي دار المعارف القاهرة ١٩٧٩م .

٩ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي دار إحياء التراث العربي بيروت .

١٠ ـ أضواء على الطرق الصوفية في القارة الأفريقية د/ عبد الله عبد الرازق إبراهيم مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٨٩م .

١١ ــ الإطار الدفاعي عند الصوفية الأستاذ أسعد الخطيب . بحث بمجلة التراث العربي ــ التي تصدر عن اتحاد الكتاب العربي دمشق ع ٥٣ جماد الأولى ١٤١٤هــ ــ ١٩٩٣م .
١٢ ــ أعلام الإسلام ــ مهدي الله ــ الأستاذ توفيق أحمد البكري لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ــ دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٤م .
١٣ ــ الأعلام ــ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين خير الدين الزركلي دار العلم للملايين بيروت لبنان ط ١٩٧٩/٤م .
١٤ ــ أعلام المغرب العربي لعبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية بالرباط ١٣٩٨هــ ــ ١٩٧٨م .
١٥ ــ الأمير عبد الكريم الخطابي ــ بطل الشمال الأفريقي ــ محمد عبد المنعم الحامي و محمد عبد الوارث الصوفي دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط ١٩٥٨/١م .
١٦ ــ إلى التصوف يا عباد الله الشيخ أبو بكر الجزائري مطبعة المدني ط ١٤٠٨/١هــ ــ ١٩٨٧م .
١٧ ــ الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وآثارهما في حياة الأمة ــ علي بن بخيت الزهراني تقديم الشيخ محمد قطب دار طيبة ــ مكة المكرمة ــ ودار عمار الشارقة ط ١٤١٨/٣هــ ــ ١٩٩٨م .
١٨ ــ أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة د/ علي بن نفيع العلياني ــ دار طيبة للنشر والتوزيع السعودية ط ١٤٢٤/٤هــ ــ ٢٠٠٣م .

حرف الباء

١٩ ــ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني مطبعة الإمام القاهرة .

٢٠ ـ تاريخ الأستاذ الإمام ـ محمد رشيد رضا . مطبعة المنار بالقاهرة

٢١ ـ تاريخ أفريقيا في العصر الحديث والمعاصر د/ شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق إبراهيم دار الثقافة الدوحة ط ١/١٤٠٧هـ ـ ١٩٩٧م .

٢٢ ـ تاريخ بغداد ومدينة السلام لأحمد بن عليّ بن ثابت ـ الخطيب البغدادي دار الكتب العلمية بيروت لبنان د/ت .

٢٣ ـ تاريخ التصوف في الإسلام د/ قاسم غني ترجمة صادق نشأت ومراجعة د/ أحمد القيسي ود/ مصطفى حلمي ط مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة.

٢٤ ـ تاريخ الثورة المهدية والاحتلال البريطاني للسودان للسير ونستون تشرشل ترجمة عز الدين محمود دار الشروق القاهرة ط ١/١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م .

٢٥ ـ تاريخ السودان الحديث ـ الأستاذ ضرار صالح ضرار الدار السودانية للكتب الخرطوم السودان ط ٣/١٩٧٥م .

٢٦ ـ تاريخ الطرق الصوفية في مصر في القرن التاسع عشر ـ فريد دي يونج ترجمة عبد الحميد فهمي الجمال . ط الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٥م .

٢٧ ـ تاريخ المسلمين في أفريقيا ومشكلاتهم د/ شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق إبراهيم ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع الفجالة القاهرة ١٩٩٦م .

٢٨ ـ تاريخ المغرب في القرن العشرين روم لاندو ترجمة نقولا زيادة ط بيروت ١٩٦٣م .

٢٩ ـ تاريخ المغرب الكبير في الفترة المعاصرة وحركات التحرير والاستقلال د/ جلال يحي ـ دار النهضة العربية بيروت لبنان ط ١٩٨١م .

٣٠ ـ التصوف بين الإفراط والتفريط د/ عمر عبد الله كامل دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ط ١/١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .

٣١ ـ التصوف بين الحق والخلق الأستاذ محمد فهر الشقفة الدار السلفية د/ت .
٣٢ ـ التصوف في الإسلام د/ عمر فروخ دار الكتاب العربي ـ بيروت لبنان ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .
٣٣ ـ التصوف في مصر أبان العصر العثماني د/ توفيق الطويل ط الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٨م .
٣٤ ـ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين الرازي ـ منشورات دار الكتب العربية بيروت لبنان ط ١٤٢٥/٢هـ ـ ٢٠٠٤م .
٣٥ ـ تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي د/ محمد أحمد لوح دار الهجرة بالرياض ط ١٤١٦/١هـ ـ ١٩٩٦م .
٣٦ ـ التقريب للحافظ ابن حجر العسقلاني تحقيق محمد عوامة دار الرشيد سوريا ط ١٤١٨/٤هـ ـ ١٩٩٧م .
٣٧ ـ التيجانية دراسة لأهم عقائد التيجانية على ضوء الكتاب والسنة د/ علي آل دخيل الله ـ دار العاصمة السعودية ط ١٤١٩/٢هـ ـ ١٩٩٨م .

حرف الثاء

٣٨ ـ ثورة الشهيد عز الدين القسام وأثرها في الكفاح الفلسطيني الأستاذ عوني العبيدي مكتبة المنارة الزرقاء ـ الأردن .

حرف الجيم

٣٩ ـ الجامع الصغير من حديث البشير النذير للإمام جلال الدين السيوطي تحقيق حمدي الدمرداش محمد مكتبة الباز مكة المكرمة ط ٢ / ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م .
٤٠ ـ الجهاد في الإسلام قديماً وحديثاً للمستشرق الهولندي رودلف بيترز ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر والتوزيع القاهرة ط ١٤١٧/١هـ .

٤١ ــ الجهاد في سبيل الله ــ حقيقته وغايته د/ عبد الله بن أحمد قادري دار المنارة جدة ط ١٩٩٢/٢م .
٤٢ ــ جهاد الممالك الإسلامية في غرب أفريقية ضد الاستعمار الفرنسي د/ إلهام ذهني دار المريخ للنشر والتوزيع ــ الرياض ١٩٨٨م .
حرف الحاء
٤٣ ــ حاضر العالم الإسلامي لوثروب ستودارد الأمريكي مع تعليقات الأمير شكيب أرسلان دار الفكر العربي القاهرة د/ت .
٤٤ ــ حاشية الباجوري على ابن قاسم الغزي الشيخ إبراهيم الباجوري مطبعة بولاق القاهرة ١٣٠٧هـ .
٤٥ ــ حاشية رد المحتار محمد أمين الشهير بابن عابدين على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في فقه أبي حنيفة ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . د/ت .
٤٦ ــ حاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب لزكريا الأنصاري . الشيخ عبد الله الشرقاوي مطبعة الحلبي بمصر ١٣٦٠هـ ــ ١٩٤١م .
٤٧ ــ الحركة الصوفية في الإسلام د/ محمد علي أبو ريان دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ط ١٩٩٤م .
٤٨ ــ الحركة المهدية بين التأثير والتأثر د/ صالح أحمد المسلوت دار الأندلس طنطا ١٩٩٨م .
٤٩ ــ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر الشيخ عبد الرازق البيطار ــ دار صادر ــ بيروت / لبنان .
٥٠ ــ الحياة الروحية في الإسلام د/ محمد مصطفى حلمي ط الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ط ١٩٨٤/٢م .
٥١ ــ حياة عمر المختار الأستاذ محمود شلبي دار الجيل بيروت لبنان ط ١٤٠٢/٤هـ ــ ١٩٨٢م .

حرف الخاء

٥٢ ــ الختمية العقيدة والتاريخ والمنهج محمد أحمد حامد محمد خير دار المأمون الخرطوم السودان د/ت .

٥٣ ــ الخزنوية خداع وتضليل الشيخ عبد الله عبد الرحمن الجزيري ط الثانية ١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م .

حرف الدال

٥٤ ــ دائرة المعارف الإسلامية مجموعة من المستشرقين ــ إعداد وتحرير نخبة من العلماء بإشراف الأستاذ إبراهيم زكي خورشيد وزملاؤه مركز الشارقة للإبداع الفكري ط ١٤١٨/١هـ ــ ١٩٩٨م .

٥٥ ــ دراسات في تاريخ أفريقية العربية الأستاذ عبد الكريم غراسية جامعة دمشق ط ١٩٦٠/١م .

٥٦ ــ دراسات في التصوف إحسان إلهي ظهير ط إدارة ترجمان الشبه باكستان د/ت .

٥٧ ــ الدر المنثور في التفسير بالمأثور جلال الدين السيوطي مطبعة الأنوار المحمدية القاهرة د/ت .

٥٨ ــ دعوة الإصلاح بين الشيخ عبد الحميد باديس في الجزائر والدعاة المعاصرين في الشرق العربي د/ محمد فتحي عثمان بحث منشور في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود ع ٤ لعام ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م .

٥٩ ــ الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية توماس أرنولد ترجمة حسن إبراهيم حسن وزملاؤه مكتبة النهضة المصرية القاهرة ط ١٩٧٦/٣م .

٦٠ ــ ديوان الإمام الشافعي تحقيق أميل بديع يعقوب دار الكتاب العربي بيروت ط ١٤٢٤/٢هـ ــ ٢٠٠٤م .

حرف الراء

٦١ ـ ربانية لا رهبانية الشيخ أبو الحسن الندوي دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع ط ٢/ ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م .

٦٢ ـ رسالة الشرك ومظاهرة مبارك الميلي دار الغرب الإسلامي ط٥/ ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .

٦٣ ـ الرسالة القشيرية للإمام عبد الكريم القشيري ط القاهرة ١٣٣٠م.

حرف الزاي

٦٤ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط ـ ط مؤسسة الرسالة ـ ومكتبة المنار الإسلامية ط ١٤٠١/٢هـ .

٦٥ ـ ذكريات الشيخ علي الطنطاوي دار المنارة للنشر والتوزيع جدة ط ١٤٢٢/٣هـ ـ ٢٠٠١م .

حرف السين

٦٦ ـ سبيل الدعوة الإسلامية ـ محمد أمين المصري ـ دار الأرقم ط الأولى ١٤٠٠هـ .

٦٧ ـ السودان عبر القرون ـ مكي شبيكة دار الثقافة بيروت لبنان ط ٢/ د/ت .

٦٨ ـ السيد البدوي محمود أبو رية مطبعة الإمام بمصر . د/ت .

حرف الشين

٦٩ ـ الشرح الصغير على أقرب المسالك الشيخ أحمد بن محمد الدردير ط دار المعارف القاهرة .

٧٠ ـ الشيخ الجليل عمر المختار . نشأته وأعماله واستشهاده د/ علي محمد الصلابي المكتبة العصرية ـ صيدا بيروت لبنان ط ٢٠٠٧/١م ـ ١٤٢٧هـ .

حرف الصاد

٧١ ـــ الصحاح في اللغة والعلوم ـــ معجم وسيط ـــ تجديد صحاح العلامة

الجوهري إعداد وتصنيف نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي دار الحضارة العربية بيروت لبنان ط ١٩٧٥/١م .

٧٢ ـــ صحيح مسلم شرح الإمام النووي ـــ دار إحياء التراث العربي ـــ ومكتبة المتنبي بيروت لبنان .

٧٣ ـــ صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي د/ كامل مصطفى الشيبي دار المناهل بيروت لبنان ط ١٤١٨/١هـــ ـــ ١٩٩٧م .

٧٤ ـــ الصوفية في نظر الإسلام الأستاذ سميح عاطف الزين ـــ الشركة العالمية للكتاب ـــ دار الكتاب العالمي ـــ بيروت لبنان ط ١٤١٣/٤هـــ ـــ ١٩٩٣م .

٧٥ ـــ الصوفية نشأتها وتطورها محمد العبدة وطارق عبد الحليم ـــ مكتبة الكوثر الرياض ط ١٤٢٢/٤هـــ ـــ ٢٠٠١م .

٧٦ ـــ الصوفية الوجه الآخر د/ محمد جميل غازي إعداد عبد المنعم الجداوي ـــ المطبعة الفنية بالقاهرة د/ت .

حرف الضاد

٧٧ ـــ ضعيف الجامع الصغير الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ط المكتب الإسلامي .

حرف الطاء

٧٨ ـــ طائفة الختمية أصولها التاريخية وأهم تعاليمها د/ أحمد محمد أحمد جلي دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع لبنان ط ١٤١٢/١هـــ ـــ ١٩٩٢م .

٧٩ ـــ الطرق الصوفية في القارة الأفريقية د/ عبد الله عبد الرازق إبراهيم دار الثقافة بالقاهرة ط ٢٠٠٤/١م .

٨٠ ـ الطرق الصوفية في مصر د/ زكريا بيومي ـ دار الهجرة ـ القاهرة ط ١٤١٢/١هـ .

٨١ ـ الطرق الصوفية في مصر د/ عامر النجار دار المعارف القاهرة ط السادسة د/ت .

٨٢ ـ الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وآثارها د/ عبد الله بن دجين السهلي دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع الرياض ط ١٤٢٦/١هـ ـ ٢٠٠٥م .

٨٣ ـ الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية د/ التليلي العجيلي ـ منشورات كلية الآداب بمنوبة ١٩٩٢م .

حرف العين

٨٤ ـ العامل الديني في الحركة الوطنية الجزائرية الأستاذ الدكتور / أبو القاسم سعد الله ـ مقال بمجلة الفيصل ع ١٣٨ ذو الحجة ١٤٠٨هـ أغسطس ١٩٨٨م .

٨٥ ـ عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي د/ مازن مطبقاني دار القلم دمشق ط ١٤٢٠/٢هـ ـ ١٩٩٩م .

٨٦ ـ العقيدة والقوة معاً محمد عبد الله السمان دار الجيل بيروت لبنان ط ١٣٩٤/١هـ ـ ١٩٧٤م .

٨٧ ـ عمر المختار الحلقة الأخيرة من الجهاد في ليبيا ـ طاهر أحمد الزاوي دار المختار الإسلامي للنشر والتوزيع ط ٢٠٠٤/١م .

٨٨ ـ عوارف المعارف للإمام السهروردي ملحق بإحياء علوم الدين للإمام الغزالي ـ دار المعرفة بيروت .

حرف الفاء

٨٩ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني المطبعة السلفية بالقاهرة د/ت .